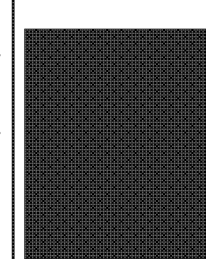
هكذا .... رأت

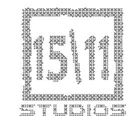
للمؤلف صفاء عبدالمنعم

طبعة ميريت الأولى 2008

المؤلف: صفاء عبد المنعم
تصميم الغلاف: صالح عبد العظيم



التجهيزات الفنية: وكالة 15/11
البريد الإلكتروني: info@15-11.com
تليفون: 02/27957033
فاكس: (202) 27957033
العنوان: باب اللوق - 20 ش عبد العزيز جاويش متفرع من محمد محمود - برج الاطباء - الدور الخامس - شقة 514
www.15-11. net



إهداء: إلى/ أصدقائى الذين رحلوا
فى محرقة بنى سويف.



«الإنسان منفى متنقل.
وهذا قدره. وطن الإنسان الحقيقي هو حيث الشعور بالكرامة وبالأمل الممكن أو بالتفاؤل المستحيل».

فى الصباح..

– تشرب هند كوبين كبيرين من الشاى. ثم تجلس على المكتب العريض، تتأمل الشارع من خلال النافذة.

هنا كتبت، وهنا جلست طويلاً، وهنا أخذت ترنو إلى الصور المعلقة التي رُسمت لها في الأيام الماضية. والآن تكتب، عنها، عن أشياء لا تعرفها، وتبحث فى جذور ماضية. كانت فى يوم ما ثقافة شعب، ومنظومة كاملة للأخلاق.

فى الآونة الأخيرة ..

– سقطت مطلقات. تزحزح التاريخ عن موضعه. وداعبت الأحلام آمال أناس كانوا فى يوم ما مشتتين أو بعض رعاة، أو باعة جائلين. وادعت بعض شعوب أنها صاحبة حضارات كانت لشعوب أخرى. ونحن الآن نتنازل عنها بمهانة وسهولة وعار.

فى السادسة صباحاً..

– تصحو (هند). وقبل أن تذهب إلى العمل. تكون قد شربت كوبين كاملين من الشاى.. ثم تنزل.

تسير في شارع ٢٦ يوليو، تتطلع إلى واجهات المحلات. التي فجأة أصبحت ضخمة وبرخام فخم وجميل. رخام يجلب خصيصاً من جنوب أفريقيا، لتزين به الواجهات والمداخل. حدثت نفسها:
أنا لستُ ضد الجمال. ولكن لماذا كل هذا القبح المنتشر؟
والسلوك الإنساني أصبح مذبذباً (بين بين).
تقطع هند الطريق من الزمالك إلى بولاق. كل يوم وهي ترى القبح الحديث وراءه جمال قديم، تعبر كوبرى (أبو العلا) الذي. بناه المهندس الفرنسي (إفيل).
الذي انتحرلأنه نسى أن يفتح الكوبرى لمرور المراكب؟!
النيل يمتد أمامها متباهياً بخلوده.
أول ما يواجه عينيها (مبنى وزارة الخارجية الجديد) الشموخ والجمال والعظمة.. تتأمل جمال زهرة اللوتس، وتخشى مراقبة الكاميرات المتراصة عالياً.
. تخفض عينيها وتسير ببطء. تمرق من الكوبرى إلى الشارع، تنزل متباطئة في إجلال وإكبار وخشوع، وعيناها تتابعان جمال المباني القديمة والمشربيات والمقرنصات التي تنظر إليها بحزن من الاهمال والسقوط.
تتجه عيناها صوب مسجد السلطان (الشيخ حسين أبي علي) المكنى بأبي العلاء قطب أقطاب المحكمة الشعبية، وواحد من التاسوع المقدس في المعتقد الشعبي.
هنا في ٢٦ شارع يوليو..
. استيقظت هند من نومها مبكراً صنعت كوباً كبيراً من الشاي، وانتظرت طويلاً. مرور العربات التي تدق في رأسها. ولكنها لا تمر. توقفت جميعها فجأة. لتشهد هذا الحدث الجلل.. لقد عرفت هند أنها تحب حمزة..

ـ وصنعت كوباً آخر من الشاى، وانتظرت الساعات والساعات عله يأتى بقامته الفارعة وخطواته السريعة.

وفى النهاية، اتصلت به، هاتفته، صرخت فيه: كتبت قصة جديدة.

ضحك عبر الهاتف: إزيك يا هند.

كانت المسافة التى بينهما شاسعة. هو يعرف ذلك. ولكنها أصرت أن تقربها، قرأت له مقاطع كثيرة من القصة، وهو ينصت، وفحيح صوته يصل إليها. ولكنها تواصل القراءة والمتعة.. كأنها أخيراً وجدت من يسمعها. ثم صرخت فيه ضاحكة:

ـ عارف ده معناه إيه؟

ضحك: معناه إيه؟

«معناه إنى بحبك».

أغلق الخط غير مصدق، ووعدها أنه سيزورها عند عودته. ولكن بعد يومين اتصلت به. فاعتذر عن ضعفه وضعفها، ونصحها بالتأنى. لأنه ليس هو.

وقال لها: ليس بهذا الشكل تحل الأمور يا هند!

سمعت صوت أم جابر يناديها من بير السلم.

– يا ست هند.. يا أستاذه.

أطلت هند من الباب، ونادتها: اطلعى يا أم جابر. اطلعى يا وليه.

أخذت تصعد الدرجات فى صعوبة وتعب، ثم وقفت قليلاً، وأسندت يدها على كتفها وقالت بإرهاق شديد: إزيك يا بنتى.. إزى حالك.

ضحكت هند وأخذتها من يدها وأدخلتها.

– إيه يا وليه يا عجوزة.. تعبتى؟

دخلت هند المطبخ، وضعت براد الشاى على النار، وضحكت: الدهن فى العتاقى يا وليه.

قعدت أم جابر وتربعت على الأرض، ثم فرشت الورقة التى فى يدها وقالت: تعالى باسم الله. خرجت هند من المطبخ حاملة كوباً كبيراً من الماء وهى تضحك: إيه يا أم جابر.. جايبه عشاكى معاكى؟ ضحكت أم جابر، وظهرت سنتها الوحيدة فى فمها: ما انتى عارفه يا ست.. مابقاش فيه سنان. ولازم آكل لقمة طرية. فردت اللفة، فظهر كباب ساخن، ورائحته تفوح. ضحكت هند وهبدتها على كتفها: لقمة طرية، ولا لقمة مغمسة؟ انكسفت أم جابر، ودارت وجهها بيدها.

- يوه يا ست.. أنا طول النهار شقيانه. وبقالى أسبوع بسدد فى تمنه للواد عتره الجزار. ثم مدت يدها لهند بقطعة كبيرة: خدى يا بنتى. ردت هند يدها: كُلى يا أم جابر.. أنا سبقتك.. لكن هاشرب معاكى شاى. ثم قامت واقفة، واتجهت ناحية المطبخ.

صاحت أم جابر ضاحكة: هو الزيادى أكل؟ وأكيد شربتى عشرين كوباية شاى.

خرجت هند حاملة الأكواب، كوباً كبيراً لها، وآخر لأم جابر. ثم جلست على الكرسى المقابل للنافذة، بحيث ترى الشارع ووجه أم جابر جيداً.

"وجه منحوت من طمى الأرض، منذ عصور قديمة، كأن نحاتاً حاذقاً قام بصنع الخطوط والتعريجات واللون البنى الذى يحمل تراب السنين، عينان عسليتان، غائرتان، صافيتان مثل ماء النيل، وأنف شامخ، وجبهة عريضة خطت السنون عليها العبر، وشفتان رقيقتان، رقيقتان، كما وصفهما الشاعر الشعبى وأبدع، والرقبة كوز العطشان، كما قال. تنهدت هند داخلها وهى مازالت تتأمل

"أكيد في يوم من الأيام كانت أم جابر تحمل سمات ما من الجمال"!.

أدركت أم جابر بحسها الفطرى أن هند تتأملها، فضحكت: تعرفى يا ست هند وأنا صغيره كانت حلاوتى مانعه.. كان شعرى أصفر وطويل يوصل لحد خلخال رجلى، وعودى ولا عود الزان. ضحكت هند وسخرت منها.

– وأظن هاتقولى كانت عينيكى خضره وشعرك أصفر. وأمك أميره وخطفها الجن من القصر وأجوزت أبوكى الفلاح.

ضحكت أم جابر، ودست فى فمها قطعة كبيرة من اللحم.

– طب وحياتك.. ومن نبى النبى نبى .. كانت عينيا ملونه وزى العسل، وكنت أمشى، تتشهى عليا الرجاله، طب أنتى عارفه يوم ما اتولدت أمى سمتنى فج النور عشان حست بنور خارج منها.

رفستها هند بقدمها. يا وليه يا فشاره.. ليه نبيه!

– طب إنتى عارفه كان حمايا مسمينى إيه؟

الشاميه على اسم جدتى أم أمى.. كانوا بيقولوا كانت من الشام وطابع الحسن هياكل منها أكل.. وكان حمايا يقعد يضحك وينادينى: بت يا شاميه تعالى جنبى.

أقوله: نعم يابا.

يقولى: ألا هو أبوكى جاب إيه بالمهر؟

أقعد أعدله جاب يابه (كردان دورين بعروسه، وجاب طشت نحاس وأبريق وطشتيه ولحاف ومرتبه ومخدتين والعشا).

يضربنى بعصاه ويقوللى: يا بنت النورى دوول بس بالخمسه جنيه! وفضل لحد ما مات وهو يسألنى نفس السؤال: خدى يا شاميه، أبوكى جاب إيه بالخمسه جنيه. وأقعد أعد له.

ضحكت هند ضحكاً عميقاً، كأنها لم تضحك من قبل.

– ليه هو كان عايزك تشترى البلد كلها؟

– عقول بقى يا ست هند، هنقول إيه.
تعتدل هند فى جلستها.
– طب قوليلى يا أم جابر.. حكايتك..
– احكى لى الحكاية.

تربعت أم جابر فى جلستها، ثم جمعت الورقة التى أمامها وطبقتها بحرص على الباقى ومصمصت أصابعها ثم رفعت ذيل جلبابها ومسحت يدها وفمها وأمسكت كوب الشاى ورشفت رشفة طويلة بتلذذ، وقالت: شوفى يا ستى، وما ستك إلا أنا..

- صلي على النبي
- عليه الصلاة والسلام
- زيدي النبى كمان صلاه

أمنا كانت تسيبنا قطط عمى مع ستي وتروح الغيط مع أبويا، كان يبقى الغيط بعيد فى بلد تانيه. واحنا نفضل مع ستى أم أمى، هى اللى ربتنا...

أمي تاخد العيل الصغير معاها وتفوت اللى أكبر منه. كنا كلنا لحمه حمره، وكانت ستى تأكلنا وتسقينا ببقها زى الحمام، وفين وفين تلاقى العيل من دوول كبر ومشى. وفى السنه التانيه تيجى أمى تولد، وتسيب العيل اللى معاها.. يبقى ابن سنه، كانت زى الأرنبه، بتحبل ع الأربعين. كنت أنا التالته فى ترتيب أخواتى. كان قبلى أخت كبيره وولد. وفى يوم من ذات ليام..والله فاكراها زى ما نكون دلوقتى، وكل ما أفتكرها شعر راسى يطقطق وجسمى يقشعر. جت أمى عشان تولد. كنا فى طوبه.. قلب الشتا. وكانت ستى كاسره الركيه وعماله تعمل لنا رقاق رشته على الصاج عشان نتعشى. والدنيا كانت برد وبتشتى وزى الرصاص.

جت أمى تتنفض، وقالت: الحقينى يا مه هاولد. جريت ستى

ونيمتها على الفرن. أتارى القرن طش منها فى السكه وهى راكبه الحمار. أوام أوام ستى ولدتها، كانت بنت. وانا كنت بنت تمن تسع سنين، لكن ماخفتش ووقفت أساعد ستى، وأجيب لها الميه السخنه. وأختى الكبيره واقفه زى خيبتها تتفرج علينا. وبعد أمى ما ولدت.. تانى يوم.

بصينا لقينا جتتها قايده نار وبتترعش، وعماله تهزى بكلام، وتقول: ولادى، ولادى. وكلام مش مفهوم. وبعدين نادت عليا وقالت لى: تعالى يا عين أمك تعالى.. خدينى على صدرك. قلت لها: يامه انت تقيله عليا. قالت لى: لأ متخافيش، أنا خفيفه، خف الريشه، شوفى أمك خفيفه إزاى، عايزه أوصيكى على أخواتك.. خالى بالك منهم.

قلت لها: يامه أنا صغيره، وصى اختى الكبيره. ضحكت، وقالت: لأ إنتى حنينه، وقلبك كبير، أخواتك أمانه فى رقبتك. وسكتت. على ما ستى عملت لها الحلبه. كان سر الإله طلع. أتارى جتلها حمى النفاس، واحنا ما نعرفش. خدت أختى الصغيره فى حضنى وقعدت أبكى. راحت ستى وخداها منى ومرضعاها من أمى وهى ميته. قلت لها: ليه كدا يا ستى؟ قالت: خليها تموت، هو احنا ناقصينها.

وفعلن بعدها بكام يوم أختى ماتت. وبعدها بسنه ستى ماتت، والسنه اللى بعديها أختى أجوزت وماتت هى كمان. وفضلت أنا والعيال الصغيرين. كانوا بيقولولى: يامه. وأبويا هج منا، وفضل فى الغيط، ورفض يجوز لحد مامات. أصلها كانت بنت عمه. وهو كان بيحبها قوى. وفضل ييجى لنا من الزرعه للزرعه، يجيب الغله ويقعد يومين، وبعدين يمشى. وأنا ربيت العيال، بنتين وولدين.

وكان ليا أخ. هو اللى ورايا على طول. أصل أمى بطنها كانت

بتفسر مره ولد ومره بنت. كان يحب المغنى والمواويل. وفى يوم طفش منا، وسرح ورا الغوازى والمغنيين وكان بيحب يغنى موال حسن ونعيمه وأدهم الشرقاوى، ومن بلد لبلد، ومن مولد لمولد. وأنا دايره أدور عليه، وأسأل عنه الخلق، وأسوق عليه طوب الأرض إنه يرجع عن اللى فى دماغه. ما يرجعش. وفى يوم كنا فى الشتا.. زى دلوقت. كنا فى طوبه. لأ فى أمشير، ولقيته داخل علينا ومعاه واحده، وعيش وحلاوه من السيد البدوى. قعدنا واتعشينا. هو وهى دخلوا القاعه. ونام.

وقمت فى الفجر أدور عليه عشان يصلى. مالقتوش، فص ملح وداب. بعدها بكام يوم سمعت إنهم لقو جتته متقطعه ومرميه فى الترعه.

الناس عرفته من الوشم واسمه اللى على دراعه. أبويا رفض يدفنه. وقال مش ابنى. واخويا هرب من البلد. وأنا رحت لفاه فى شاش راسى وبيساه ودفناه فى طرب الصدقه. وبعدها بزمن وسنين. بعد ما أجوزت وخلفت، رحت ضيفه عند أخويا. ومعرفش إيه اللى جاب السيره. عرفت إن هو اللى قتله. ولما سألته : ليه؟ كدا هان عليك أخوك؟! قالى: هاتسكتى، ولا أخليكى تحصليه. كنتى عايزاه يعرنا، ويسرح ورا الغوازى، عايزاه يطلع مغنواتى هو احنا لنا فى الكلام الفارغ ده! عايزاه يبقى برمكى؟

ومن يومها حلفت ما أنى داخله له دار تانى. ولحد النهاردا ما دخلت داره.

آخويا أجوز وخلف ومات. وعمرى ما خطيت العتبه. إيه.. الدنيا الحلوه راحت يا بنتى.

فين أيام ما كانت أمى تجمعنا حواليها، وتقعد تغنى لنا، وتحكى لنا الحواديت. كان صوتها جميل. أتارى أخويا طلع زيها. حب الغنا منها.

في يوم سمعته على السطوح بيقول موال:
(أنا جمل صلب لكن علتى الجمال)

قلت له: الله صوتك حلو يا محمد، جبت الكلام ده منين يا خويا؟ قالي: من الدنيا الواسعه يا بنت أبويا. قلت له طيب سمعني موال تاني. قال:

يا للي ابتليت بالغرام
إياك تحسب الغرام ساهل
أنا حبيت أعوم بحر المحبه وأحسبه ساهل
وقعت ما دريت قالتلي الناس تستاهل.

وحق من أماته كان جدع تختشى العين تراعى له، طول بعرض بجمال. كان شنبه لسه مخضر وعوده فرع، وفى دقنه طابع الحُسن هياكل منه حته، كان الخالق الناطق شبه المرحومة. كنت أحبه لله فى لله، ياريته كان فضل وإنشالله طلع زمار، ولا طبال. أهو كان أحسن من المخفى التانى. خد ورث الوليا وكوش على الدار والغيط، وطلعت يا مولاى كما خلقتنى.

كان خشن وقلبه جاحد. فكرك كنت أطلب منه حاجه. ولا عمره عمل زياره وقال أشوف اختى. تعرفى أنا يوم ما جيت أتجوز.

أبويا رفض إنى ألبس توب الفرح أو أركب الترومبيل إلا لما أدلق ربع الجوره بتاع الميه الوسخه.

وليلة الحنه ماجبليش محففه تحففنى. كنت هاروح بعبلى ألا لولا واحده حبيبه زيك قالتلى: خدى الحجر يابت واطلعى على البحر حُكى نفسك.

خدت الحجر، وطلعت على البحر وفضلت أدعك فى أديا ورجليا لما بقوا قشطه، وبتراب المحمه شلت الشعر، وجبت حُمره

وقعدت أدعك وأحط فى خدودى، ومن هباب اللمبه سويت حواجبى. طب انتى عارفه. إحنا كنا ساكنين فى شارع طويل، وآخره حاره سد، وكان قدام بيتنا وسعايه كبيره، وكنا زرعين فيها شجرة جميز وشجرة نبق، جريت وقعدت تحتيها أبكى.

بصيت لقيت ملاك لابس أبيض فى أبيض ونازل من السما وبيمد إيده ويملس على شعرى، ويقولى: متخافيش أنا معاكى. وبعد شويه زى ما يكون اتخيلت بامى وستى واختى داخلين القاعه، وواقفين حواليا، وعمالين يزوقونى. وبقيت زى البدر فى ليلة تمامه. ولما فتحت عينيا أعدت أنده: يا أم.. يا ست. والله فاكراها زى ما تكون دلوقت.

وكانت ساعه مغربيه والعريس على وصول. والله يا بنتى كل ما افتكرها الدمعه تفر من عينى وتصعب عليا نفسى. أعمل إيه ما هو اللى من غير أم حاله يغم. وأنا لا أم ولا أخت ولا جاره ولا حبيبه. أبويا كان مقاطع الجيره وجيرة الجيره. وحياتك. حلف بالطلاق ما أركب، ولا ألبس ولا حد يروح معايا. كان زعلان عشان أجوزت فى بلد بعيدة وسبت أخواتى. والناس واقفه أمم، وسابنى أروح لوحدى زى العازبه. ورحت عند دار العريس فى بلدهم. بقى كله يخبط كف على كف ويقولو: إيه العروسه اللى جايه لوحدها. وجايه من غير رجاله وراها ولا شاء. وجه جوزى عشان يشيلنى ويدخلنى. قلت له: لأ. أنا كنت تخينه وزى البطه. وهو كان زى العصايا. هيشيل بقره إزاى. آتاريه كان متراهن مع أصحابه. وأنا ماعرفش. هياخد حته حشيشه مكن. وحياتك. فتحت الباب ورحت داخله، وجريت على جوه زى القطر.

بقت الناس تقول: إيه العروسه الجامدة دى! وجه عشان ياخد وشى.. مبقاش عارف يحط صباعه فين غشيم. رحت رفساه

برجلي، وقلت له: أوعى أنتَ عايز تضحك الناس علينا. ورحت ماسكه الشاش ودبه صباعه في نفسي. راح الدم طالع. جم النسوان يدخلوا. قالهم: خلاص. وراح رامي الشاش في وشهم. وعاملي فيها عنتر.

ويوم ورا يوم.

اكتشفت أني خدت راجل عره. طول النهار قاعد على القهوه يلعب قمار. ويقول: أنا جدع. وسابني لابوه يبهدل فيا. وساكك على الأكل. ولما الجوع يقرصني. أقوله: يا راجل اشتغل زى خلق الله. يضحك ويشقلب راسه لورا. ويقول: هو فيه راجل بيشتغل يا مره.. أنا بيه.. وخالى العمده. وبعد أبوه ما مات، فضل يبيع الأرض قيراط ورا قيراط. ويرجع من القهوه خسران ومحشش. ولما أطلب منه قرش نجيب عشا . كان يمسك البلغه ويفضل يضرب على راسي.. يضرب يضرب لحد لما كان الوش يروح في ناحيه والنعل في ناحيه. ومره جاب رطل لحمه. واداه لأخته تسويه. وقعد ياكل. وجه ابنه من بره. وقاله: هات حته يابه.

مسك اللحمه على طول دراعه. وقال للكلب: كشك.. وراح رامي له اللحمه.

ومرضيش يدى ابنه حته. يعني للكلب ولا ليك يا مسلم. رحت تاني يوم وحياتك بايعه فردة الحلق. ومشتريه رطل لحمه، وسويته وناديت عليه. وقلت له: تعال يا قلب أمك كُل لما تشبع. ورحت قافلة عليه باب المندره، بالمفتاح. ولما جه أبوه من بره. وسألني: فيه أكل إيه يا مرة؟ لطمت على خدودي، وقلت له: جاك مر خره. هو انت سبت نكله عشان تطفح. ورحت ساحبة مشنة العيش وطبق الجبنه، وقلت له: كُل. قعد ياكل زى المساكين. تفتكرى دى عيشه دى؟ هجيت. خدت الواد والبت وطلعت. بلد تشيلني، وبلد

تحطني. لحد ماجيت مصر، وقعدت جنب السلطان حوط علينا وسترنا، أو مال أنا أحبه ليه.

والواد اشتغل واجوز. والبت اجوزت وخلفت. في الأول قعدت بشوية سوداني وبلح. وبعدين بشوية ترمس. وحبه حبه كنت كل مولد أبل شوية فول. وأجيب شوية شخاشيخ ولعب واعمل منديلين بقويه. وأعد أنده على العيال: شمر كمك وعيط لمك وهات تعريفه. وفضلت من مولد لمولد. والحبايب تكتر. وعملت دروا. ورا المسجد عند عطفة باب السر وبعدين حوطها بخيش على قالبين طوب واهى ماشيه.

صمتت هند ولم ترد..

... وبعد أن أغلق الخط على صوتها الرقيق.

بعد يومين من معرفته خبر حبها الذى فاجأه، والقصة التى كتبتها. اتصل بها وأعتذر عن سوء تصرفه. وتعاطفت معه وصدقته. ومن هنا.. ومنذ هذا اليوم عرفت (هند) كيف تعشقه. وكيف تجعله يتعلق بها.

فى البداية ولأيام طويلة. كانت تفكر جيداً كيف صدقته. بعد أن قال لها: لستُ أنا.

كادت أن تنهره. أن تغلق الخط فى وجهه. أن تسبه. أن تقول له: طظ فيك.

ولكنها لم تفعلها. وكلما أدارت قرص التليفون، وسمعت صوته آتياً من بعيد، تعلقت به أكثر وعشقته.

انتهت أم جابر من غسل يديها، والأكواب، وجلست على الأرض فى أسى. ثم نادت على هند. وأخرتها يا بنتى؟

انتبهت هند إلى صوتها. أيوه يام جابر!

دارت أم جابر فمها بطرحتها وهى تضحك. بسألك وأخرتها؟
أخذت هند نفساً عميقاً، وملأت صدرها بهواء الليل البارد.
- مالهاش آخر.. مدفوعة نحيته من غير قصد أو تفكير.
- يا بنتى الراجل كل ما يلاقى الواحدة ساكته وسهله بيطمع. واللى مايخافش من ربنا خافى منه.
نزلت دمعة صامتة من عينى هند ولم تعلق.
كل ما فعلته. أخذت تنظر إلى البيوت والشارع، وبعض المارة السائرين. ومئذنة السلطان العالية. وهى تستدفئ بشالها وتحبكه حول كتفها بقوة.
- كل يوم يا أم جابر. أقول هاسيبه. ماقدرش.
- وآخرتها.
- فيه حاجات ملهاش آخر.
مابنسألش إيه أخرتها. لكن نفضل مدفوعين كده زى ما يكون حد بيزقنا.
- الشيطان يا بنتى. هو اللى بيزقك ع الغلط.
- هى كدا علاقتى بيه ملهاش حل.
علاقة لا بتنتهى. لكن بتسبب لى آلام عظيمة وكبيرة.
- ربنا يهدى.
أخذت أم جابر طرحتها، وقامت واقفة. لأنها تعرف أن هند سوف تدخل فى حالة من البكاء الشديد، وسوف تدخل حجرتها لتنام. وهى لا تحب آن يراها آحد هكذا (مهزومة وحزينة) تقوم أم جابر وتنزل درجات السلم وهى ترفع صوتها.
- تصبحى على خير يا ست هند. وقولى اللهم اخزيك يا شيطان.

***

وتعود أم جابر، كل يوم من نفس المكان. تعود من القصر عابرة الكوبرى من الزمالك إلى بولاق.

- يا على يا نورى. انتَ فين يا وله.

ما إن تعبر أم جابر كوبرى (الزمالك) وتصبح على الجهة الأخرى من النيل، حتى تصيح منادية على حفيدها (على الله) الذى يلتبس عليها اسمه مع اسم جده، فتصرخ منادية بأعلى صوتها: يا على يا نورى. أنتَ فين يا وله.

يخرج على حافى القدمين فاتحاً حضنه، يستقبل جدته ويأخذها بين ذراعيه.

وهى تفتح ذراعيها الكبيرتين وتحتويه وتقبله. ثم يسحب كل منهما الآخر ويدخلان البيت.

تتربع أم جابر على الأرض فى الحجرة أمام السرير الجالسة عليه زوجة ابنها جابر وإلى جوارها (نور الله) فتضحك نور وتناديها: وأنا يا جدتى، مش حبيبتك.

تخجل أم جابر، وتفتح ذراعيها: دا انتى ستى، وتاج راسى. تنط نور فوق جدتها، وتقبل رأسها. كنتى فين يا جده طول النهار؟

تمسح أم جابر على رأسها وترقيها وهى تقرأ الفاتحة والصمدية وقل أعوذ برب الفلق.

- ليه يا نور؟

- أبويا جابر كان عايزك.

تدفس نور رأسها فى صدر جدتها. احكى لى حكاية يا جده.. طب قوليلى فزوره.

تضحك أم جابر وتملس على رأسها. يا نور. الحكايات بالليل حرام.. فلوسنا تصدى.

- قولى يا جده.. واوعى تنامى.



- حجر حجنجر فى الأرض ينجر. يبيض ويفقس ما حد ينضر.. يبقى إيه؟

- التعبان يا جده.. قولتيها ميت مره. أنا عايزه حكايه طويله.. حكايه ما تخلصش. تفضلى تقولى وانا اسمع.

- طيب اسمعى يا ستى (صلى على النبى).

- عليه الصلاة والسلام.

- كان ياما كان يا سعد يا إكرام.. واحده غنيه وكانت عايشه لوحدها. قام فى يوم جهزت العشا. وقعدت عشان تاكل، بصت لقت نفسها لوحدها. صعب عليها وراحت معيطه، وبعدين كبس عليها النوم. قامت نامت. بعد شويه جه حرامى عشان يسرقها. لقاها نايمة جنب الأكل، جميله زى القمر. حب يسرق الدهب، لقى نفسه جعان: قال لما آكل. كشف الأكل ولسه بيقول باسم الله. راحت مفتحه عينيها وقالت له: من ترك شىء فى الحرام، فى الحلال ناله. قالها: تتجوزينى! قالت له: أجوزك. واجوزها واتعشوا وناموا. أتريها كانت ملكه وهو ما يعرفش.
وبص لقى نفسه عايش فى قصر كبير، وخدم وحشم. وعاشوا فى تبات ونبات وخلفو صبيان وبنات. وتوته توته. خلصت الحدوته. وكنت هناك وجيت وكلت فرخه وديك.

غطت نور فى نوم عميق. قامت سمرة من مكانها وأخذت الطفلة ووضعتها على السرير ثم جلست أمام حماتها على الأرض وحدثتها. وأخرتها يا آم جابر؟

تضع أم جابر يدها تحت رأسها، ثم تفرد جسدها، وتذهب فى النوم. وأخرتها يا أم.

- خليها على الله يا سمره. واقصرى الشر ونامى.

أم جابر تتصنع النوم.
ولكنها تظل تفكر وتفكر فى على ونور وجابر وسمرة، والزمن الذى سيأتى، وأحياناً تصرخ وهى نائمة. يا سلطان يا أبو العلا. فك الكرب عنا بقى.
تقوم زوجة ابنها فى الفجر تراها مازالت مستيقظة وحولها بركة كبيرة من الدموع، تملس على رأسها وتناديها: وأخرتها يا خالتى!
تغمض أم جابر عينيها، وتتقلب على الجانب الآخر. مالهاش آخر يا بنت اختى. نامى. ولا اسكتى، ولا غورى فى داهيه.
تقوم سمرة واقفة، تفتح النافذة الضيقة المطلة على جامع السلطان، تسمع أذان الفجر، تبكى. وآخرتها يا سلطان. فين سرك الباتع.
تقوم أم جابر واقفة وهى تستعيذ بالله، ثم تدخل الحمام وراء الستارة، تغسل وجهها وتتوضأ ثم تخرج للصلاة. تخرج سمرة وراءها، تسير فى الحارة المجاورة.
يأتى جابر حاملاً بين يديه العيش والفول، ويدخل منادياً: يا على، يا نور.
يقوم كل منهما من مكانه ويحتضناه بقوة. تأتى سمرة حاملة جردل الماء. ثم تعد الفطور.
وتصنع سندوتشات المدرسة.
يجلس جابر على السرير متعباً.
- هى أمى خرجت؟
تقف سمرة تلف السندوتشات وتضعها فى الشنطتين. من بدرى. من ساعة الفجر.
يتمدد جابر على السرير مغمضاً عينيه. أمى بتتعب قوى. وأنا

مش قادر أحوشها.
- ومش هاتقدر. أمك مش هاتسيب هند لا فراق إلا بالخناق.
ينقلب جابر على جنبه الآخر، ويغط فى النوم.
تخرج سمرة مع على ونور، تحمل لهما الشنطتين، وتخرج من الحارة المحصورة بين السلطان ومبنى الخارجية.

★★★

- ليس بهذا الشكل تُحل الأمور يا هند!
جلست هند ليلة كاملة من ليالى يناير الباردة في النافذة المطلة على النيل، والمواجهة لمبنى الخارجية. كانت دائماً تضحك مع أم جابر وتقول لها: - إحنا لتين من محاسيب الست يا أم جابر.
تضحك أم جابر بدرديرها والسنة الوحيدة تظهر كأنها نتوء وسط بحر هائج.
- الست الخارجية الله يسامحها. خدت الدار والجار.
تضحك هند. ولا يهمك يا أم جابر، ربنا موجود.
تبكى أم جابر وتمسح دموعها. الجار من ساعة ما راح، والفرح ما رجعش.
هند لا تصدق حكايات أم جابر الكثيرة. فهى ترى أن الزمن قد اختلط لديها، والحكايات أصبحت تشبه الأساطير، ولكن ترويها باستمتاع.
طب أنت عارفه يا ست هند.

مرة إبراهيم الدسوقي سأل السيد البدوي. وقال له: يا شيخ العرب، لو أنا أختفيت تعرف فين مكاني. ضحك السيد البدوي وقال له: ولوكنت في بطن الجبل.
راح إبراهيم الدسوقي أختفى بين (عيني الرسول) وفضل السيد

البدوي يدور عليه في سابع، أرض، وسابع سما، وآخر ما تعب قال: يا رسول الله عني.
فجأة لقى إبراهيم الدسوقي قدامه بشحمه ولحمه وبيضحك وقال له: أنا كنت بختبر معرفتك وقدرتك يا شيخ العرب.

ظلت هند تضحك وهي غير مصدقة: يا وليه يا خرفانه كفاية كدب بقى.

(كذلك أنتِ يا هند تتداخل عندك الحكايات والصور وتتشابه الهزائم).

سمعت هند جرس المدرسة، قامت من شرفتها وأخذت الشنطة، وخرجت كى تستعد ليوم طويل من الشقاء والألم، داخل جدران قديمة فى مبنى قديم. كان قصراً قديماً لأغا خان وتبرع به سبيلا ووقفاً. ولم تستطع الخارجية الحصول عليه، فأخذته بين أحضانها كطفل رضيع، ترعاه وتتكفل به. والسلطان يطل شاهداً من زاويته ومبناه الكبير. السلطان أبو العلا. قطب الأقطاب. أحد التاسوع فى المحكمة الشعبية. وحارس بولاق القديم الذي قتل الوحش الذي خرج على الأهالي من البحر.

تنزل هند الكوبرى، وتقرأ الفاتحة، ثم تدخل إلى المدرسة.

***

- لماذا أكلتِ قلب حمزة يا هند؟

رن الموبايلَ. خرجت هند من اللجنة. وعينا ناهد صديقتها تتابعانها. حاول التلاميذ الهرج. ولكنها زعقت فيهم من الخارج. إيه يا روح أمك أنتَ وهو.

صمت التلاميذ، ونظر كل منهم فى ورقته.

فتحت هند الخط.

- أهلاً.

- ..

- كويسه.

- ..

- عندى برد.

- ..

- أصل إمبارح روحت مشى.

- ...

- كان فيه صخره كبيره على قلبى. قلت أكسرها بالمشى.

- ...

- وهى دى أول مره.

- ...
- طول عمرى لوحدى.
- ...
- أخاف. من إيه؟
- ...
- الليل. وكلاب السكك.
اطمن ماعنديش حاجة أخاف عليها.
- ...
- أروح بدرى لمين؟
- ...
- اطمن أنا بخير. شكراً على سؤالك.

ثم أغلقت الخط بعصبية وعادت، جلست وسط التلاميذ. أخذت ناهد تنظر إليها صامتة. والتلاميذ ازدادوا خشوعاً وصمتاً.

كانت نظرات ناهد تتفحصها تحاول أن تعرف ماذا حدث، ولماذا هذا الصمت. فتحت فمها كى تسألها. أشارت هند لها أن تصمت. قامت ناهد من مكانها وأخذت تدور فى اللجنة ذهاباً وإياباً، وهى عاقدة ذراعيها تستدفئ بهما من البرد. هند مازالت مكانها صامتة. تتأمل التلاميذ والأوراق، وتشعر بلسعة برد تأتى إليها من الباب. تتأمل فى صمت، ثم تضم الشال حول كتفيها، ومسحت بيديها دمعة دائمة التعلق، لا تسقط إلا إذا مسحتها هند.

قلبي يحدثني بأنك متلفي ..
روحي فداك عرفت أم لم تعرف
مالي سوى روحي وأذل نفسه ..
في حب من يهواه ليس بمسرف.

دخلت أم جابر من الباب حاملة لفة فى يدها وهى تضحك. يا ست هند. الفطور.

أشارت لها هند أن تظل مكانها وخمسة فى وجهها. باقى خمس دقائق. جلست أم جابر على باب اللجنة تنتظر، وأخذت تتحدث من بعيد: يا ست هند. شوفى لك صرفه مع السكان. أنا تعبت من كتر المناهدة معاهم. مُصرين يا حبيبتى تدفعى فلوس الميه، زى ما كانت المرحومة معوداهم.

أشارت لها هند ثانية أن تصمت. ولكن واصلت أم جابر كلامها. ومازال الأكل فى حجرها تغطيه جيداً كى لا يبرد: – ما هو حرام تدفعى ١٥٠ جنيه ميه. والبيت بيلم ملاليم. دا ظلم والله العظيم.

ضحكت ناهد من بعيد واقتربت من أم جابر: الصيت ولا الغنى.

عمارة ضخمه في شارع ٢٦ يوليو ويتلم مية جنيه. نظرت هند فى ساعتها، وقامت تجمع الأوراق من التلاميذ. دخلت ناهد كى تساعدها. خرج أول التلاميذ صائحاً.

– شى – حا ناجحين إنشاء الله.

ضربته أم جابر على مؤخرته بيدها ونهرته. على نيلة إيه؟ قال يا عنى الواد شملول.

أخذت ناهد الأوراق وخرجت. ودخلت أم جابر، وفردت ورقة الطعام على الدرج، ونادت.

– يالله يا غاليه، الطعميه هاتبرد.

ضحكت هند وأمسكت الورقة: طعميه وفول فى اللجنه يا أم جابر!

أمسكت أم جابر رغيفاً وقسمته نصفين، وأخذت تأكل: وهو

الزبادى أكل؟ كلى كلى..

دخلت ناهد حاملة كوبين من الشاى، وهى تضحك: كدا تسبقونى.

ضحكت أم جابر وقالت: قربى باسم الله.

وضعت ناهد الشاى على الدرج وهى تضحك: - بالهنا والشفا. أنا صايمه. النهاردا وقفه عرفات.

صمتت هند ولم تعلق.

ضحكت أم جابر وهى تمضغ الطعام بدارديرها.

- المفضوحه مرات ابنى نسيت تقولى. على العموم هاعتبر ده سحورى، وأكمل اليوم صيام. ضحكتا هند وناهد بصوت مرتفع. جمع بعض المدرسات من الخارج.

- خير يا أبلوات. مضحكونا معاكم.

ضحكت ناهد وهى لا تستطيع أن تسيطر على نفسها: أم جابر بتتسحر دلوقتى.

ضحكت أخرى وهى تعدل الإسدال على رأسها: نعمل إيه بقى! حد يقول امتحان يوم الوقفة.

مسحت أم جابر فمها بورقة وقالت: أنا عامله حسابى الصوم بكره. إيه اللى خلاه النهاردا؟

ضحكت هند ضحكات متواصلة، وبصوت شديد كادت أن تقع على الأرض لولا أنها أسندت يدها على الدرج وقالت: نعمل إيه البدو سرقوا يوم من الشهر! صمت الجميع صمتاً شديداً، ولم يستطع أحد أن يعلق، أو يحاول أن يناقشها. فهى الوحيدة التى نطقت، وصمت الآخرون. أمسكت أم جابر كوب الشاى، وأعطت هند الكوب الآخر وقالت: اشربى.. اشربى. الرب مسامح.

خرج الجميع، وتركوا الفصل.

وهند واقفة أمام الباب، مازالت تتأمل الجملة جيداً، وهى تبتسم.
اقتربت ناهد منها وسألتها: مين اللى كان بيكلمك على الموبايل يا هند؟

«المريد الصادق لا يخوض في الذات تعظيما لجانب الله عز وجل.
المريد الصادق لا يرجع عن الطريق، ولو قاسى كل الأهوال.
وكل مريد لا يجد نفسه صادقا في طلب الطريق وجب عليه الخروج منه».

***

- وهى صحيح كَلت قلبه يا ست هند؟
- كَلت كبده يا أم جهل زى ما انا هاكل كبدك دلوقتى عشان القلقاس لسه على النار.
ضحكت هند وهى جالسة أمام النافذة، مكانها المفضل، حيث تحب أن تنظر إلى النيل والشارع ومبنى الخارجية. أمسكت ناهد السكين، وأخذت تقشر باقى القلقاس، بجوار أم جابر وهى تتعجب من تصرفات هند الغريبة، وغير المفهومة.
- يا هند حد ياكل قلقاس النهاردا؟ نصوم نصوم ونفطر على قلقاس.
- أيوا يا ست ناهد.. النهاردا عيد الغطاس.
انتظرت ناهد قليلاً غير متوقعة الرد، ثم قالت مندهشة.
- واحنا مالنا ومال الغطاس. النهاردا وقفه عرفات: قامت هند وهبدتها على كتفها: النهاردا يوم الدموع يا أم جهل، النهاردا

بكت إيزيس ونفتيس على أخوهم أوزيريس. لما قتله اخوه ست ورمى التابوت في النيل.

صمتت أم جابر وهى تنظف السلق بهمة ونشاط.

وهند عيناها تراقبان الطريق.

– يا ناهد قلتى للعيال ييجوا من المدرسه على هنا.

– والله قلت لهم يا حبيبتى. وعلى العموم (محمد ومحمود صايمين).

ردت أم جابر مكملة الحديث.

– ونور وعلى كمان. وجابر ومراته، المفاضيح صاموا من غير سحور، لما عرفوا إن النهاردا الوقفه، مع إنهم كلوا سندوتشات مع العيال.. يبقى صوم إيه دا؟

ضحكت هند وهى تضع كوب الشاى الفارغ على المنضدة التى أمامهما وتحبك الشال على كتفيها.. ألا أنتى خرجتى الفرش فى البلكونة يا وليه؟

– من بدرى. بس الدنيا مش هتمطر. شكلها مصحصح ودافى. والصبح طوبت جسمى من مية الزير. والبت سمره مرات ابنى دخلت ورا الستاره وعملت زيى. قالت لى: عشان أعيش كتير زيك يا خالة. أهو كله كلام. حد عارف عمره لحد فين. تعرفى يا ست هند أبويا زى اليومين دوول كان ييجى من الغيط حامل ومعبى خس وملانه وفول أخضر. وكانت ستى تضحك وتقول: روحى يا طوبه ياللى ما بليتيلى عرقوبه.

وكانت أمى ترد عليها: بكره آخوها أمشير يخلى عضمك على الكوم نسير.

يضحكوا ويقولوا: يقبح مهما يقبح فيه روايح من روايح الصيف. كان خير يا ست على خير.

تقشر أم جابر القلقاس ودموعها تتساقط. والله اللمه حلوه. واحنا عيال كنا نلعب ونضحك.

ونتعشى ليلتها قلقاس وزفر، ونفضل نمص قصب ونقشر برتقان ونكرع. والدموع نازله من عينينا من كتر الضحك.

قامت ناهد من مكانها، وأخذت كوب الشاى كى تصنع غيره.

سألت أم جابر هند مستفسرة: هى صحيح كلت قلبه ولا كبده يا ست.

ضحكت هند وهى ترنو إلى الخارج باحثة بعينيها.

– كلت كبده يا وليه. سلطت عليه العبد وحشى. أعطته حريته مقابل قتل حمزه.

– حمزة مين؟

– عم الرسول يا أم جهل.

– وحصل.

– حصل يا أم جابر.

– أكيد اللى تعمل كدا تبقى جباره. اسمها إيه؟

– هند. هند بنت عتبه.

انتظرت أم جابر قليلاً ثم قالت غير مصدقة: وكلت كبده إزاى؟

هبدتها هند على كتفها وقالت: زى ما أنا هاكل كبدك دلوقتى يا وليه خلصى. وانتى ثرثاره كدا.

– عايزه أفهم، هى هند كلت كبد حمزه ازاى؟ وانتى يا ست هند بتخافى من خيالك.

أخذت هند السكينة، وجلست مكان ناهد وأخذت تقطع القلقاس: بكره هاكل قلبه. واقطعه بسنانى عشان استريح.

– هو مين يا ست؟

- اللى بالى بالك.
أتت ناهد من المطبخ حاملة كوب الشاى، ووضعته على الترابيزة، ثم أخذت السكين من يد هند وجلست مكانها. قامت هند، وأمسكت كوب الشاى، وهى ترشف فى بطء.
مالت ناهد برأسها على أم جابر، وسألتها بصوت هامس: هند هتاكل قلب مين؟
خفضت أم جابر رأسها وهى تضحك والدموع تتساقط من عينيها..
- اللى بالى بالك.
- لأ.. لأ. هند حاجه تانيه، مش ممكن تاكل قلب حمزه.

«من شرط المريد أن يصحب شيخه بلا نفس ولا ملك ولا اختيار بل يرى نفسه ملكا لشيخه يتصرف فيه كما يشاء. ومن طلب الوصول إلى مقامات الرجال بغير محبة شيخ ومخالفة نفس، فقد أخطأ الطريق، ولا ينال المريد الصادق. درجة الرجال. حتى يبذل الروح ويفنى الإرادة تحت مراد شيخه».
قامت هند من مكانها، وهى تتجه نحو الباب. شهلى منك لها. المغرب قرب يدن. والعيال صايمين.
ثم فتحت الباب، وأخذت تقبل الأطفال فى حب وود. وجابر وراءهم حاملاً لبشة كبيرة من القصب. وسمرة خلفه حاملة كيسين من البرتقال.

***

في ٢٦ يوليو.
وبعد تغير البدو ليوم وقفة عرفات عام ٢٠٠٥. ضحكت أم جابر على اليوم الضائع من عمرها والذى ولدتها فيه أمها. وسخرية هند منها؛ لأنها لا تعرف تاريخ ميلادها. وهذا العام بالذات قررت الاحتفال به.
قالت لها هند: يا وليه يا فقده الزمن، أنت عارفه مولوده إمتى؟
ضحكت أم جابر ودارت دراديرها بيدها: أيوه يا ست هند. أمى قالت: ولدتنى قبل وقفة العيد الكبير بيومين. ضحكت هند وهى تجهزنفسها للنوم سنة كام لو شاطرة؟
رصت أم جابر الغسيل النظيف ووضعته داخل الدولاب: سنة اللى سنة. أهو اتولدت وخلاص.
كانت هند تعلم أن أم جابر كانت تخدم فى بيت والدها منذ سنوات بعيدة، وظلت فى البيت بعد وفاته. ثم جاءت مع هند إلى هنا. أخذت هند تشعل عوداً من بخور الصندل وعوداً من المسك، وهى ترص أشياء كثيرة داخل صندوق صغير. التفتت أم جابر نحوها وسألتها بتطفل وهى تضع عينيها داخل الصندوق: إيه دا يا ست؟
مازالت هند مشغولة بأشيائها، قالت دون أن تقف عن الحركة: الصندوق ده يا أم جابر فيه أهم صور فى حياتى. وفيه حاجات بحبها.
(صورة أبويا وأمى، وصورة العدرا والمسيح، وصوره جمال عبد الناصر، وصوره حمزه. ودى صوره نور وعلى). انتبهت أم جابر، ونظرت نحو الصندوق كأنها تعرفه، ثم صرخت: مش ده صندوق الست رباب.

تمددت هند على السرير، وأغلقت عينيها.

– هو يا أم جابر.. هو.

ذهبت أم جابر خارج الحجرة، وقبل أن تطفئ النور قالت: تصبحى على خير يا أم نور.

اعتدلت هند فى مكانها وقالت صارخة: اقفلى الباب ده يا وليه يا خرفانه. نور أخت على، وبنت جابر وسمرة. وتصبحى على زفت.

"ومن رأيتموه يطلب الطريق فدلوه علينا، فإن كان صادقا فعلينا وصوله، وإن كان كاذبا طردناه، لئلا يفسد المريدين. فإنه لا يصل إلى المحبوب من بغيره محبوب".

★★★

«كل مريد عنده حسد لإخواته لا يرجى له إرتقاء أبدا».

لأن حمقها عليه، قطع همزة الوصل بينهما. عادت حزينة تدق جرس الباب. تفتح لها أمها صامتة، ثم صرخت فيها: مالك يا بنتى.

تدخل هند حجرتها صامتة، تلقى بثقل جسدها على السرير، متقطعة الأنفاس، والدموع فى عينيها قد تحجرت، ثم صرخت بعلو صوتها: ألحقونى.

كانت المدينة البعيدة، النائمة فى أحضان الصحراء هى الملاذ الأخير لها. فاختارت أن تكون الرحلة الأخيرة لها. هناك يتواصلان، يمد كل منهما شباكه تجاه الآخر، علهما يقتربان، يتحدان، أو يمتد الجسر الذى سقط بينهما فى يوم من الأيام إنه شيخها وهي مريدته الصغيرة.

دفعت الباب ودخلت.

كان استقباله لها حاراً، حميمياً. وكان البرد قارصاً يحنى ظهره للأمام، وعيناه مليئتان بالدموع.

ولكنه لم يرها؛ لأن عينيه كانتا مغمضتين. فانصرفت مسرعة

تجاه الباب تجرى، وهى تجر أذيال الخيبة وراءها. وهو يناديها بعلو صوته: هند.. يا هند.

كان معتقداً أنها تنفر منه، وتستهين به لأنه أعمى ولا يراها جيداً.

«كل مريد عنده حسد لإخواته

لا يرجى له إرتقاء أبدا». أخذ يرددها كثيرا بصوت عال.

وعندما عاد بعصاه إلى كرسيه، ليستريح ويشعل سيجارته، كانت هى قد اختفت تماماً، ولم تعد تسمع صوته، ولا نداءه كل مريد عنده حسد لإخواته لا يرجى له ارتقاء أبدا.

الشمس انطفأت. وعاد الليل إلى سكونه الدائم. والصوت مازال يناديها: يا هند.. يا هند.

من هنا كانت حاجته إليها. ولكنها لم تدرك ذلك جيداً.

استيقظت هند على صوت أم جابر، وهى تفتح الباب وتدخل، حاملة فى يدها كوباً كبيراً من الماء، وتضىء النور. خير.. خير، اللهم اجعله خير.

. مالك يابنتى بتصرخى.

اعتدلت هند فى جلستها على السرير وهى تفرك عينيها وقالت: وحش، شفت وحش كبير عمال يجرى ورايا، وعايز ياكلنى.

– يا ساتر يارب.. احكى يا بنتى.

– شفت اللهم اجعله خير.. أبويا فى صحرا كبيره ملهاش آخر، وهو عمال ينده عليا، وأنا مش سمعاه. لكن عماله أجرى، وهو يجرى ورايا. وأنا خايفه.

اقتربت منها أم جابر وهى تمد يدها بكوب الماء.

– خير يا بنتى خير.. اشربى. هو كان بينده عليكى ليه؟

– الله أعلم. بس أنا شفته كان أعمى. وانا كنت خايفه منه

قوى.
كنت حاسه كأنه وحش كبير ومخيف، عايز يفترسنى.
- هو خد منك حاجة؟
- لا خد. ولا أدى. لكن كان بينده عليا بصوت عالى... هند.. يا هند.
وبيقول كلام مش فاهماه، المريد، حسد، إخوانه..
أخذت أم جابر كوب الماء من يد هند بالهنا والشفا.
اقتربت هند منها وسألتها: إلا هو جعفر أبويا مات إزاي يا أم جابر؟

***

نظراً لجمالها، والتفاف البنات حولها، ولصوتها الجميل رنة حلوة، كانوا يسمونها شادية. تقف فى الحفلات المدرسية تشدو بصوتها الجميل، بعض الأغانى والقصائد. والجميع ينصتون باهتمام.
ضبطها يوماً أبوها، تقف أمام مرآة الحمام وهى تغير ملابسها بملابس أخرى، وتضع كماً هائلاً من المكياج، لدرجة أفزعته. فتحت باب الحمام، وخرجت تغسل يديها على الحوض، وهى غير مصدقة.. وهو من آن لآخر ينظر إليها. ثم انفجرت ضاحكة. إيه يا بابا كل البنات كدا!
فوجئ بأنها تعرف ما يدور فى رأسه. وأنها كبرت. سهمت للحظة، ثم نظرت إليه طويلاً، نظرة عميقة متحدية، ثم أعطته قبلة فى الهواء وخرجت.
زحف الصداع على رأسه، وفوجئ بها تكاد تنفجر، وضعها أسفل الصنبور والماء البارد يسقط فوقها، ثم خرج إلى الشارع

مهرولاً.

أوقفته البنت التى تعمل بالمكتبة عنده، ونادته: يا عم جعفر.. يا عم جعفر.

التفت بكامل وجهه نحوها ووقف.

- ....

- مالك يا عم جعفر؟

تركها، وانصرف.

ثم نادت البنت بعلو صوتها على البنات الواقفات أمامها (يا هند، يا ناهد، يا صباح) تعالوا يا بنات. أتين جميعاً دون معرفة السبب، اعتقدن أن هناك مشكلة ما: فأسرعن. خير.. فيه حاجة؟

قالت البنت وهى تمسك ورقة وقلم: أنا عايزه أسمع أغنية شاديه الجديده، خلاص مسافر، إللى غنتها إمبارح فى الحفله.. واحده منكم حفظاها.

ضحكن بصوت مرتفع، جعل بعض المارة يلتفتون نحوهن، ثم نادين فى صوت واحد: هند.

جاءت هند، ووقفت بينهن، ثم أخذت تشدو بصوت جميل، مقاطع من الأغنية (خلاص مسافر.. صحيت فى يوم من الأيام...) أخرجت كل منهن منديلاً، وأخذت تمسح دموعها، لأن الصوت كان شجياً.

جاء رجل مسن، يسمع بود ثم قال: مالكو يا بنات.

نهرته أكبرهن بعنف: - نعم يا جدو.. اتكل.. روق.

سار مبتعداً، ثم من آن لآخر يعود ينظر نحوهن مبهوراً بالجمال والصوت والشجن، ثم اقترب ثانية وفى سخرية لاذعة نهرته

البنت ثانية: شوفوا الراجل الكوهنه بيسبل عينيه إزاى. ردت أخرى: أصل المشرحه ناقصه قوتلا.

أمسكت فتاة المكتبة بيديه ثم أبعدته قليلاً. يا عم دى مش فته.

ثم أخرجت ورقة أخرى، وأخذت تكتب. وهند تشدو بصوتها الجميل (صحيت فى يوم من الأيام حسيت إنى يا عينى وحيد.. حسيت بغدر الصحاب، قلت أسافر.. مسافر). وقفت البنات يستجمعن ذاكرتهن، ويكملن الأغنية. وأحياناً كان يرتفع صوتهن وراءها، منشدات مثل الكورس، ناسيات الشارع والناس. وأعدن الأغنية مرات ومرات، حتى تأكدن من صحة الكلمات. اقترب منهن الرجل مرة ثالثة، ولصق جسده بهند. آخذت البنات تتقاذفه فيما بينهن. يابا ارحمنا.

- يا عمنا ابعد حبه تزيد محبه.

كانت عينه الزجاجية واضحة، وجامدة، لا تتحرك وبروزها جلى يتحدى البنات والضحكات. أما عينه الثانية، فكانت تـ فى حركة مكوكية بين البنات والصوت. يختار الأجمال، ويدفس رأسه بالقرب من صدرها، ويميل بجسده نحو وجهها، يتشممها بعمق. وكل منهن تحاول أن تزيحه من وقت لآخر. وهو لاهياً مثل فراشة، وببلاهة يتحرك، ويتنقل من غصن إلى غصن، يمتص رحيق الزهرات الجميلات، مادا يده مشيراً ناحية الكلمات المكتوبة، ثم يضيف ساخراً بعض الكلمات من عنده. إلى أن اقترب بخفة ومسكنة من صدر إحداهن، ومد يده فى رشاقة وخفة وقرصها.

صرخت البنت: يا ابن الكلب. ثم خلعت فردة حذائها، ونزلت

على رأسه ضرباً.

وعندما أحست الأخريات بالموقف نزلن معها ضرباً وركلا. وعندما رأت هند وناهد ذلك أخذتا تجريان بسرعة، وتركتاه نائماً على الرصيف ووجهه ينزف دماً، ثم سارتا فى الشارع، وهما تضحكان منشدتان، مغنيتان (خلاص مسافر مسافر مسافر) وانضمت باقى البنات وأخذن يضحكن فى نشوة وطرب.

اقتربت منه فتاة المكتبة، ومدت يدها ورفعته من على الأرض، ونظفت له ملابسه، وأجلسته على الكرسى. كدا يا عم تبهدل نفسك.

***

هند المنجذبة من أذنيها إلى الذكريات والحب والواجب والهزيمة والموت. تعود حاملة مزهرية من الورد جميلة، وتضعها أمامها، أسفل صورة رباب المعلقة على الحائط، والشريط الأسود حول طرفها. متأملة فى ورع واسترخاء. كأن الصورة تحدثها، وتنظر إليها وتحدثها. «كيف خاض الأحبة القدامى المعارك»؟ وكيف نجا الجرحى من الموت؟ الصورة والمزهرية وهند، ثلاثة فى غرفة واحدة، والموسيقى وصوت شادية يعيد الزمن والذكريات. (خلاص مسافر)

هند لم تجرب من قبل معنى الحب بهذا الشكل العنيف. ضحكت من كل قلبها عندما سمعت هذا المثل من أم جابر وهى تضحك بدراديرها الباهتة وسنتها الوحيدة (الحب خايله كدابه) ضحكت هند، وضحكت، إلى أن زفرت الدموع من عينيها مثل دش فتح فجأة ثم قالت: قصدك إيه بالخايله.

– يا بنتى من حبنا حبناه، وصار متعنا متاعه.

- ما انا عرفاكى خرفانه ومجرمه.

ثم دخلت حجرتها، ومازالت الدموع تنهمر من عينيها. إنها تقف الآن على مبعدة، بين حدود النوم واليقظة وتسمع صوت الهاتف يرن بشكل متواصل. تكمل دموعها إلى آخرها وتقول له: رن شوف مين يعبرك. هى الآن حزينة. لأنه بعد دقائق سوف يأتي إليها، ينام جوارها ساكنا ثم يتركها، ويترك بقياه، وأثره إلى جوارها. لن تفتح عينيها، سوف تغلقهما عليه، تتسمع خطواته وهو يقوم من جوارها ويفتح الدش علي جسده، ثم يرتدى ملابسه فى سرعة وينصرف منتشياً، ساحباً خطواته فى بطء وهو يهبط الدرجات فى رشاقة. ويتركها لدهشتها المفرطة ونشوتها، وآسئلتها التى لا تنتهى.

فأما غرامي واصطباري وسلوتي ..
فلم يبق لي منهن غير أسامي
ينج خلي من هواي بنفسه ..
سليما ويا نفسي أذهبي بسلام

★★★

تسللت أم جابر على أطراف أصابعها، ودخلت الحجرة، ووضعت كوب الشاى على الكومدينو جوار السرير، وقبل أن تخرج. نادتها هند: خدى هنا.

اقتربت أم جابر فى حذر وخوف، وسارت بضع خطوات ثم وقفت على بعد مسافة آمنة لا تقترب منها يد هند وتطولها.

نعم.

- انتى لسه زعلانه.

اقتربت أم جابر من السرير، وجلست على حافته وهى مازالت

حذرة، وعندما رأت هند هادئة، جلست مطمئنة.

- احكى لى حكاية رباب.
- يا بنتى نبش القبور بالليل حرام.
- احكى ولا..

قالت أم جابر مترددة.

- شوفى يا ستى، صلى على النبى.
- عليه الصلاة والسلام.
- كانت رباب بنت ولا كل البنات، جميله جمال الملكات بيقولوا كان شعرها طويل، طويل. كانت تدلدله من شباك القصر اللى ورا الجنينه. والعشاق يطلعوا وينزلوا من عليه. وكان أبوها الجعفرى الكبير يخبيها عن العيون، ويقفل عليها السبع بيبان.

وكان عندهم عبده حبشيه كان اسمها أم قويق. كانت تاخد المفتاح من الجعفرى، وتجيب الكرسى وتحطه ورا الباب وتقعد عليه.

وكانوا بيقولوا إن العبده دى هى أمه. وكانوا بيقولوا إنها ساحره، كانت تسحر الراجل من دوول غراب، أو عصفور وتطيره، أو تخليه دبوس وتشبكه فى شعرها.

أنا شفتها مره بتشترى بخور من الحاج عليش الكبير، كان فاتح دكانه جنب السلطان. مكان باب الخارجيه. كان شكلها أسود وعفش وخارمه مناخيرها ومعلقه فيها حلق. المهم بيقولوا والعلم عند الله إن الجعفرى كان بيحب رباب. وعشان مش قادر يدخل عليها، راحت الحبشيه سحراه فار آجرب مذعور. وبقت كل ليله تهدده وتقوله (آنا ولا بنتك) يخاف ويهرب منها فى الزروعات اللى كانت ماليه العشش زمان. وساعات كان يغطس فى الميه ولا حد يعرف مكانه. كان بيخاف منها موت.

آه وبعدين. اسرحى بيا اسرحى، ما هو انتى فكرانى نور ولا على وبتحكى لهم حدوتة قبل النوم.

يا وليه ياخرفانه، حد يحب بنته؟

– والله يا بنتى الله أعلم. كانت بنته، ولا عمته.

– قومى يا أم الهم.. انتى بتحكى ألف ليله وليله.

– طب واللى خلق الخلق.. ده سمعته. أقول إيه بس.

ما هو سيدى جعفر مات بسببها.

جلست هند مزعورة على السرير مثل الفأر، واعتدلت فى جلستها، ونظرت فى عيني أم جابر بدهشة. أبويا كان من عشاق رباب!

– هاقول إيه يا بنتى.. اذكروا محاسن موتاكم.

– بس.. بس. افتكرت، ليه يوم ما مات. أمى رفضت تاخد العزا. وكان كل ما واحده تقول لها: شدى حيلك يا أم هند. تقولها: شدى حيلك انتى واخرجى بره ورفضت تلبس أسود.

– يا بنتى دا كله كلام حواديت. حد يصدق الحواديت.

– ما فيش دخان من غير نار.. يا أم الغم. وابويا كان فى الأيام الأخيره حيران ومضايق. وكنت حاسة إنه زى المخنوق، أو زى اللى حبل لافف حوالين رقبته. أو زى اللى معمول له عمل أو مسحور.

– هى الحبشيه منها لله بقى. شافته قاعد قدام المكتبه زى البدر المنور. كان راجل ولا كل الرجاله.. كانت تختشى العين تراعى له. شافته الحبشية عقلها طار.

– إيه سحرته؟

– لأ. خطفته.

ومره واحده اختفى.

اللى يقول مات فى حادثه، واللى يقول مات محروق أيام حريق القاهرة في ٥١، واللى يقول لقوه مخنوق وغرقان فى النيل.

- والحقيقة؟

- علمى علمك.

لكن مش بعيد تكون الحبشيه سحرته.

***

إن كان منزلتي في الحب عندكم..
ما قد رأيت فقد ضيعت أيامي
وإن كان فرط وجدي في محبتكم..
إثما فقد كثرت في الحب آثامي

وهكذا هند.

كل يوم تفقد أحبة من تاريخها القديم، وترتاب فى الأحبة الجدد، خاصة المبتسمين فى وجهها دائماً، والذين يلوحون لها بأيديهم بحب وود.

إنها ترتاب لدرجة الهوس.. وكلما عرفت أكثر [illegible] الخوف، ورغم هذا تعشق عينيه، حزنه السرمدى الذى يخرجها من صمتها. وهو يضحك، كى تتعاطف معه بكل مشاعرها: ازيك يا هند.

إلى متى تظل هذه الكلمة تبتز كل هذا العطف؟

ظلت هند تنزف نزيفاً متواصلاً. ولم تستطع أم جابر بكل خبراتها، أن تمنعه أو توقفه عند حد معين. وهند ترفض الذهاب إلى الطبيب.

كانت تريد للدم أن يفجر الحياة. يفجر الحب. ويظل ينزف منها لآخر قطرة.

إلى أن جاءت ناهد بعد أن أعيت أم جابر الحيلة. ونهرتها بعنف.

– البت هاتموت يا وليه يا مجرمه.

كانت هند تشعر أنها كل يوم تجلس على خشبة المسرح، تقوم بأدوار قديمة، فى مسرحية هزلية. وتحيا وحدتها بقلب امرأة عجوز مهملة عن عمد وطيبة. سوف تخرج فى يوم ما إلى الشارع هاربة. تشترى أفخم الثياب، وتبتاع نظارة ضخمة بضخامة الحزن وتضعها على وجهها.

مدت أم جابر يدها على كتفها، ثم ربتت عليه بحنو وحب. تعيشى وتفتكرى يا بنتى.

مسحت هند دموعها بظهر يدها، وقالت وهى غير مصدقة:

– تفتكرى يا أم جابر، أنا قصرت وسبت أبويا يموت؟

***





كانت ناهد تقف عند العلم، وسط التلاميذ. هناك عند حدود الذاكرة بين الأسود الفاحم، والأبيض القريب إلى السواد، بطولها الفارع وابتسامتها المفرطة الدهشة، حينما تحدثها هند عن حمزة. تبتسم فى طيبة وود. يا حبيبتى. كل ده أنا عشته. طب إيه رأيك فى كوبيتين شاى، حلوين زيك.

– ضحكت هند ودارت وجهها عنها بدفتر التحضير حتى لا تشعر بأنها تسخر منها.

– لو عشتى قصة حب حقيقية. زي ماكانش سابك أبدا.

– وأكملت ناهد حديثها ما انتى عارفه. أنا سافرت سنة ٨٠. كنت بنت بنوت، واشتغلت مدرسة، وبعد تلات سنين، وقبل ما نزل عملت قرشين حلوين، هيصت أهلى، ومابخلتش على اخواتى. وجه فى يوم، وانا فى البنك بحط الفلوس، اتعرفت على واحد مصرى، كان بيشتغل هناك.حبنى. واجوزنا. كنت ستر وغطا عليه. وهو كان ملوش شغلانه ثابته كان طيارى. وكل شويه فى بلد، كنت مسمياه إبراهيم الطاير. المهم كنت أنا صاحبه دخل ثابت. قلت له وماله المليان يكب ع الفاضى. وانا إيه وانتَ إيه. وكفايه إن احنا فى غربه. (منه لله بقى) ا' م مرت ليام. وجبت

(محمد ومحمود) توءم زى الفل. وكان لازم أرجع. أمى ماتت. وصعب عليا (الغربه وحشه) قلت له: هارجع وابقى حصلنى. رجعت. قعد ييجى سنه، ويغيب سنه. ويتحجج بحجج كتير: أرجع مفلس، لازم اعمل قرشين، كلام.. وكلام. وكل مره يبعت لى، عايز فلوس، أبعت له قرشين. أبعت. عايز أنزل.. العيال وحشتنى. يبعت. والسنين جريت. والعيال كبرت. والحمل تقل. والفلوس بتخلص.

وبقاله خمس سنين لا حس ولا خبر. عرفت إنه عمال يسرمح من بلد لبلد، ومن واحده لواحده. ومن تلات تيام اتصل. وشغل اسطوانة (الغربه والعيال والفلوس) وعايز ارجع.

وفى الآخر أفوجئ النهاردا الصبح بواحده بتطلبنى فى التليفون وتقوللى: إنها مراته.

وإنه مطلقنى من زمان ومجوزها. تقدرى تقوللى: أعمل إيه؟

طب والله العظيم اللى بقوله ده حصل. وإن كنت بكدب أطس فى نظرى.

ربتت هند على كتفها بحنو، وقبلت رأسها برقة عندما لمحت الدموع تنساب من عينيها مترقرقة.

وناهد تواصل بكاءها: – منه لله بقى.

خلانى زى البيت الوقف، لا أنا طايله سما ولا أرض ومالت على كتف هند وبكت. مما جعل الجميع ينظرون إليها. ثم وضعت وجهها بين يديها، وراحت فى نشيج طويل. تعالت نهنهاتها، حتى تحلق الأطفال حولها.

– مالك يا أبله. مالك.

نهرتهم هند بعنف. حتى انصرفوا مبتعدين. ثم أجلستها، وأتت لها بكوب ماء. وصممت أن تشربه. ثم أخذتها من يدها. ودخلتا

حجرة المدرسات. لتواصل ناهد حكايتها. ووجهت حديثها بمرارة وأسى. تعرفى يا هند لو كان مات. كان أهون عندى.
على الأقل كان زمانى بترحم عليه. وافتكر له حاجه حلوه. لكن ياخد اللى ورايا، واللى قدامى، ويبتز مشاعر السنين دى كلها، وبعدين يروح يجوز. وهى تكلمنى وتسخر منى فى التليفون. شوفى لما الحب يتحول لكره. ولو طلت اقتله. هاقتله.
- ابتسمت هند وداعبتها.
- كله كلام من ورا قلبك. عمر الموت ما كان حل.
وترقرقت عيناها بالدموع.
- قامت ناهد من مكانها منتفضة وضمتها لصدرها.
- يقطعنى. والله ما كان قصدى.
مسحت هند عينيها بظهر يدها وابتسمت فى أسى. كفاية حسه فى الدنيا.
ضحكت ناهد، وجلست أمامها ضامة يدها بدفء. يا اختى قطيعة.. يا بنت خالى.
هو فيهم سحر إيه. يخلى الواحده متتنزلش عنهم.
دق الجرس فخرجتا هند وناهد مبتسمتين متعطشتين لحضن رجل دافئ.

★★★

كانت فكرة تغيير الشقة والعفش من الأمور المستعجلة والملحة على رأس ناهد.

كل يوم تسير في الشوارع، تقرأ الإعلانات، وتتصل بشخصيات، وتصنع علاقات لدقائق عبر الهاتف، وتبتسم وتغلق الخط. إلى أن تلفنت لها صديقة ثرثارة من الزمن القديم. الذى يشبه الرائحة العطنة. ورنت ضحكتها وقالت: إزيك يا بت وحشانى. كده متسأليش؟

ابتسمت ناهد ورجعت بظهرها إلى الوراء مين صباح فينك من زمان؟ وأخذت تتأرجح على الكرسى أمام المكتب وتواصل مشاغباتها. إيه أخبارك.

– خدت شقة جديدة.

– فين؟

– فى الصحرا.. في أرض الجولف وانتِ.

– لا جديد.

رنت ضحكتها مجلجلة وبخبث. اطلعى من دوول بقى معقولة مافيش جديد. طول عمرك زى البير ملكيش أرار.

أخذت السماعة من على أذنها اليمنى ووضعتها على اليسرى.

– أقولى لى أى خبر مفرح.

ضحكت صباح بهستيرية.

– يا اختى كان على عينى. سمعتى آخر نكته.

– لأ.

– طب اقفلى.. معايا تليفون. هابقى أكلمك، يالا باى.

***

ما إن عرفت أم جابر أن هند تقوم ببحث ميدانى وجمع مادة عن المرأة، وتسجيل الحكايات والمشكلات، حتى أتت بنساء الحى جميعهن دفعة واحدة، وأجلستهن على الأرض متراصات فى انتظار خروج هند من حجرتها. هن معتقدات أن هناك معونة سوف تقدم لهن، أو أن الست هند سوف تقيد أسماءهن فى الشئون الاجتماعية. وفتح باب الحكى، ولن يغلق حتى نهاية الرواية، ونهاية البحث، ونهاية العمر. فماذا تفعل هند بكل هذه الحكايات؟ ما كان وجودها فى هذا المكان، وهذه اللحظة، وهذا التاريخ إلا منحة إلهية وهبة منه.

يا اختى اسكتى. ها قول إيه ولا إيه.

جوزى مات، وساب لى تلات عيال. أكبرهم عنده ١٣ سنة وأصغرهم عنده سنتين.

وكان فيه عيل من الراجل الأولانى، بس مات وعمره شهور.

جوزى الأولانى كان نكدى، ودون. كان أهلى كل ما اغضب يرجعونى. وفى يوم خرجت مرجعتش.

كان موسوس وعنده مرض اسمه مراتى عايزه تسمنى. مراتى حطه سم فى الأكل.

وكان يمسك الطبق والمعلقة ويقف على الباب ويقول: يا ناس يا خلق مراتى حطه سم فى الأكل.

الناس تتلم وتمسك المعلقه وتاكل وتقول: الله دا طعمه حلو هات هات.

وينزلوا أكل حتتك بتتك.
وفى الآخر يروح يشترى من الدكان عيش وجبنه وزيتون ويقعد ياكل.
واليوم اللى ما طبخش فيه، يعمل عاركه وشبطه. وكان يخش من الباب ويقعد يفتح فى الدولاب ويدور تحت السرير. وأسأله بتعمل إيه؟
يقول: بدور على السم اللى عايزه تسمينى بيه.
أقوله: ليه؟
شوفى بقى يا بنتى البهدله والضرب وقلة القيمه كوم، وكلام السم ده كوم تانى.
طفشت وأهلى رجعونى، إنه يخلى عنده دم، أبداً.
كان فيه قبلى اتنين مجوزهم. وانا معرفش.
آخر مازهقت. رحت داخله الأوضه ودلقه على نفسى جاز. وقلت لهم الموت أهون من العيشه الحرام. المهم اطلقت. وبعدها بكام شهر الواد مات. قلت أحسن. أهو كان هايفضل مسمار جحا. واجوزت غيره. جه ألعن منه.
كان ديمن ساكت. ويوم ما يتكلم، يقول الكلمه تنفد من الحيطه، وكلامه كان زى الرصاص. زى السم. وكان يقعد طول النهار يعايرنى بجوزى.
اللى كان حازز فى نفسى إنى انا من النوع اللى مايطلعلوش حس أبداً. فى حالى. كافيه خيرى شرى.
أقعد طول النهار فى البيت، والباب مقفول عليا. كنت آسيبه يهوى ويقول إللى يقوله: أقول مسير الأيام تعقله. وجم العيال واحد ورا التانى. واهو مات وسابهم قطط عمى.

★★★

تقدرى تقوليلى أنا ليه بقيت كدا؟

١٠٠ كيلو وطفلين وراجل مريض. وأم فوق البيعه. وأنا بنت فضلت أدلع وآكل لقمه وأرمى عشره. وأقول النينى النينى لما يجى اللى ينقينى.

دخل علينا بالحنجل والمنجل، مسافر، ماكنتش أعرفه. قلت أهو أحسن من غيره. فرحت بالشقه والهدوم المستورده. وحياتك كل ده طلع ريش على مافيش.

اكتشفت إن الشقه فى أوسخ مستنقع فى مصر. وإيجار. والشبكه باعها بعد الفرح. والقرشين اللى معاه خلصوا، والعفش طلع بالتقسيط. وطلع بيئه. وبيشتغل بره شغلانه آى كلام. والفيلم اللى كان عامله طلع آونطه. عشان آوافق.

ودلوقتى رقد فى الخط، عنده القلب. عايزه الإيجار والقسط وحق الدوا والمم والمصاريف.

★★★

أنا اجوزت، راجل بيقولوا بيشغل هناك في البلد عند الرسول.

جبت بنتين وولدين. وكان يروح وييجى. يغيب يغيب ويرجع.

وكان كل مرة يطلب منى حاجات غريبه، وأوضاع معرفهاش.

ولما أرفض كان يضربنى. قلت له: احلق لى شعرى وطلقنى. وانا هابريك بالحق والمستحق، واطلع بالجلبيه اللى عليا. وحياتك حصل. حلقت شعرى أقرع عند الحلاق. وبريته عند المأذون، وأمى جابت لى جلبيه من عندها. وخرجت يا مولاى كما خلقتنى. خد منى العيال. وسمعت إن قالهم ماما ماتت وهى بتعمل عمليه، وأنا ماجصرت، والله ما جصرت. وقعدت مع أمى. كانت تروح السوق تجيب الخضار. وتاخد طبق طبيخ وتخش أوضتها. وفى يوم لقيت الباب بيخبط. لقيت شاب وعروستين يشرحوا القلب واقفين. وقالولى: انتى ماما. صوت وزغرط ولميت الشارع. آتارى واحده حكت لهم الحكايه. ومن ساعتها ماشفتهمش. واللى راح راح. وأمى ماتت أول ما شافت العيال.

***

غرقت هند وسط الأوراق والحكايات والشكاوى. فى الفترة الأخيرة أصبحت الكتابة بالنسبة لها سهلة وبسيطة، مجرد أن تمسك الورقة والقلم وتشرع فى الكتابة حتى تجرى الكلمات.

ومن أبسط الأشياء والمشاهد تصنع الحكايات وتنسج القصص. وتقرأ ما كتبته من أحاديث النساء وتدونها بالترتيب والتواريخ والاسم.

وقالت أخرى..

«لى صديق كلما هجرته أوحشنى. وكلما قابلته أشعر كأنى رأيته بالأمس. أصبحت ألعب معه لعبة القط والفأر. يغيب ويختفى، ثم يعود مبتسماً كأنه لم يغب. وأنا كذلك عرفت قانون اللعبة. وكلما تغيبت عنه يشتاق إلىّ. أرفع سماعة التليفون، أدير

القرص، أسمع صوته، ثم أغلق الخط بسرعة.

وفى يوم حدثنى أنه كل ليلة يضرب زوجته؛ لأن هناك مكالمات تليفونية عندما يسمع صاحبها صوته يغلق الخط فوراً.

ضحكت فى خبث. وقلت له: وعرفت منين إنه واحد؟

– أنا سمعت صوته.

ضحكت، وضحكت، وضحكت.

وفى كل مرة يغيب عنى. أرفع السماعة، أدير القرص، أسمع صوته، أغلق الخط بسرعه. وأنا أتخيل الصفعات والركلات والسباب والشتائم لزوجته».

أغلقت هند الورق على الكلام، وصرخت بصوت مرتفع: يا أم جابر. انتى يا زفته.

جاءت أم جابر من المطبخ مسرعة، حاملة كوب الشاى، وضعته أمام هند على المكتب، ووقفت صامتة. صرخت فيها.

– عجبك كدا. جيبالى مره مهشكه بتعاكس الرجاله.

ارتعشت أم جابر أمامها، وهى تعرف مدى غضبها، وحدوده. فربما تطردها، أو تضربها، لحظة غضبها. قالت وهى ترتعد. والله يا بنتى. دوول مظاليم.. مساكين.

– يا وليه هو أنا فتحاها تكيه.

ثم ألقت بالورق فى وجهها، فتناثر على الأرض.

أخذت تجمعه بسرعة ودون ترتيب، ووضعته على المكتب.

– من الصبح. أنا اسمع الحكايه الأول. والحكايه اللى تعجبنى أحكيها لك.

– يا سلام يا ست الحُسن. ما تيجى تقعدى مكانى.

– العفو يا ست العفو.

– طب غورى.. روحى.

خرجت أم جابر وهى مازالت منفعلة من رمى الورق فى وجهها، وأخذت تبكى وهى تمسح الدموع بظهر يدها.

اغتاظت هند من الحكايات التى تقرأها وفتحت النافذة ونظرت إلى الخارج.

كان مبنى وزارة الخارجية بقعدته التى تشبه زهرة اللوتس يقف شامخاً أمامها. نظرت إليه جيداً وضحكت فى نفسها: المبانى أصبحت ترهقك يا هند. وحكايات النسوان أصبحت تافهة.

أدارت عينيها ونظرت إلى مئذنة أبى العلاء العالية، الشاهدة على الزمن ومضى السنين، والتاريخ والأحداث الدامية.

"هنا فى بولاق وأثناء ثورة القاهرة الثانية أيام الحملة الفرنسية، أشعل كليبر النار فى الأهالى، لم يرحم كبيراً ولا صغيراً. ثلاثة أيام والنار مضرمة فى المبانى والوكالات والدكاكين والقصور ورائحة الشواء تفوح وتملأ الأحياء المجاورة.. كذا قال: الجبرتى". هجموا على بولاق من ناحية (البحر) النيل ومن ناحية بوابة أبى العلاء، وقاتل أهل بولاق بكل جهدهم، ورموا بأنفسهم في النيران. حتى غلب الفرنسيس عليهم وحصروهم من كل جهة، وقتلوا منهم بالحرق والقتل، وبلوا بالنهب والسلب، وملكوا بولاق، وفعلوا بأهلها ما تشيب من هوله النواصي. وصارت القتلى مطروحة في الطروقات والأزقة، واحترقت الأبنية والدور والقصور، وخصوصا البيوت والرباع المطلة على البحر. وقطعوا بعدها الأشجار والنخيل من جميع الحدائق والبساتين ليصنعوا منها السفن.

عادت هند تنظر ثانية حولها إلى الأماكن والتاريخ، والرائحة تملأ أنفها وتتذكر تلك الكلمات.

أغلقت الشباك، ودخلت حائرة، ماذا تفعل بكل هذه الأحاديث.
ثم صرخت فى أم جابر.

– انتى يا أم الزفت.. اعملى براد شاى كبير. ثم جلست إلى المكتب وتناولت الأوراق. وأخذت تقرأ

«يقول الجبرتي:

لم يكن يوجد في مصر قبل الحملة، الفرنسية. شعب بالمعنى المفهوم والمدلول الدارج.

ولم تكن توجد أمة متوحدة متجانسة، بل كانت في مصر أخلاط من الناس متنافرة، وأمشاج من خلق متحاربة، لا يجمعها جامع ولا يضمها هدف. فكانت كل جماعة ضد الأخرى، وكل طائفة في حرب مع غيرها.

وكان كل فرد غارق في الجهل والأنانية. لا يعني بوالد أو بولد أو ببلد إذا ما حزب الأمر أو حلت كارثة.

***

– أنا.

– وأنا.

– وأنا.

سرب من الطيور المجنحة، سقطوا فجأة على المكان، بأجنحتهم المزركشة، هبطوا جوقة بزقزقاتهم، وصيحاتهم المتعالية.

– أنا.

– وأنا.

كان مبنى الخارجية شامخاً، يليق بمهابة السادة الموظفين، الخارجين تواً من حماماتهم الأنيقة، وعرباتهم الفارهة تتراص خلف بعضها فى هيبة ووقار، لا يقربها المارون من أمام المبنى

حيث الحواجز الحديدية والعساكر تمنعهم.

كان عند الباب الخلفى فى ٢٦ يوليو ببولاق سور صغير، مزنوق بين مبنى السلطان ومبنى المدرسة، تطل منه شجرة دقن الباشا عالية بأزهارها الحمراء. والجندى يقف منتظراً حدثاً جليلاً يليق بوقفته الطويلة، الشامخة، والتى دعمتها أوامر السادة، بالطاعة والولاء لهم، أفواه عظيمة مليئة بالقهوة، ومغسولة بمعجون أسنان جيد. وملابس أنيقة تفوح منها رائحة عطر غالى الثمن.

كانوا جوقة من أطفال المدرسة، يقفون وهم يهللون، مرفرفين فى طزاجة خارجة من أعمارهم الصغيرة، ومن المدرسة الملاصقة للمبنى، والتى تقف فى احتضان غريب بين السلطان وبين الوزارة. وهى مثل طفل يتيم، يقف حائراً، حقيراً، باهتاً فى خيبة متواصلة. زقزقت العصافير ثانية (أنا وأنا وأنا) والعسكرى الواقف عالياً، يلقى عليهم الورود الحمراء من الشجرة. زهور جميلة فى أيديهم الصغيرة. وكلما سمع زقزقاتهم تتعالى.

- وانا يا عم.
- وانا كمان.
- وانا.
- وانا.

شعر بنشوة وغبطة، وأن وقوفه ها هنا أصبح له معنى جديداً، وحنيناً مختلفاً. لا يوجد تناسق فى المشهد، مبنى الخارجية بفخامته، ومبنى السلطان بتاريخه وشموخه. والمدرسة بجوارهما أرهقتها السنون وتساقطت جدرانها.

"هنا ومنذ سنوات بعيدة تكاتف أهالى الحى، وقاموا بخلع الأعمدة الحديد من المساجد والقصور. وقاموا بعمل مسابك حديد لتصنيع السلاح فى ورش صغيرة وفقيرة وأياد عفية، صنعوا البنادق والقنابل.. وضربوا بها مدافع كليبر. والشيخ البولاقى يحثهم على الجهاد. والسلطان أبى العلاء، جمع دراويشه وأخرج مريديه وشحاذيه، يقفون وجهاً لوجه ضد الفرنسيين. وعمت الثورة البلاد. انطلقت من أقصاها إلى أقصاها.. رملة بولاق. الساحل، روض الفرج، إمبابة، الجيزة.. أحياء تلاقى مصيرها وأحياء دمرت ومعارك دارت. ثلاثة أيام والنار مشتعلة. ثلاثة أيام ورائحة الشياط يشمها الثوار. والأهالى يقاومون. نزع الفرنسيون الأبواب والمتاريس، وملأوا الحارات بالفوضى والخيول ودخان النار والبنادق والأتربة والموت".

والعسكرى ما زال يلقى الورود على العصافير المزقزقة. وهم يهللون: أنا وأنا وأنا.

«وكان النيل فى تحولاته القديمة.. يسكن هنا.. يلقى بطميه ويفيض خيراً على البلاد»من دموع إيزيس وأختها نفتيس على أخيها التائه.

وقفت هند تتأمل المقرنصات والمشربيات الباقية، وهى تتساقط دموعها من الإهمال والفوضى. والمئذنة شامخة، والعصافير تتطاير وترفرف. تنزل الكوبرى على مهل، متأملة المشهد فى هدوء المحبين، وتراهم وهم يتصايحون من بعيد.

– وانا والنبى يا عم.

– وانا يا رب يخليك.

أيديهم الصغيرة مليئة بالورود، وقفازاتهم الشقية ترتفع. وعندما رأوها قادمة من بعيد، هرولوا نحوها، سعداء فرحين.

– كل سنه وانتى طيبه يا مس. النهاردا عيد الأم. وأعطوها الورود الحمراء الجميلة.

ألقى العسكرى من مكانه وردة كبيرة أمامها.

رفعت عينيها تجاهه. أومأ لها برأسه سعيداً، مبتسماً، صائحاً مثل الأطفال:

- كل سنة وانتى طيبة يا مس.

أخذت الصغار حولها، ودخلوا المبنى الصغير الذى تحتضنه الخارجية، ويرعاه السلطان. كان الطابور قد أوشك على الانتهاء، وصيحة تحية العلم تتعالى.

- تحيا جمهورية مصر العربية.

- تحيا جمهورية مصر العربية.

وقفت والأطفال حولها يرددون معاً.

- تحيا جمهورية مصر العربية.

وقفت فى خشوع وعظمة وإجلال والعلم يرفرف فى الهواء. والورود الحمراء فى أيديهم جميلة، متحفزة، وطازجة.

***

– كُنت فين يا على وأمك بتدور عليك؟

"يضع الجلاد حبل المشنقة حول رقبته. فينطق بالشهادتين. وفجأة يشق الميدان عن فارس ملثم فوق جواد أشهب يطيح بسيفه رقبة الجلاد. ويهجم بفرسه على الحراس فيفرقهم. ثم يقطع حبل المشنقة ويحمل على الزيبق الذاهل فوق جواده. ويقفز به فوق الجند المذعورين. ويندفع كالسهم فى شوارع القاهرة. مفلتا من مطارديه.. وكان الفارس عندما هجم على الجلاد قد صاح به (جاءك فارس العصر، وغفير أهل مصر...)".

ثلاث ساعات وسمرة تبحث عن على ونور فى كل مكان. وأخذت تنادى عليه: يا على.. يا على يا نور. إلى أن صعدت إلى السطح ورأته يقرأ فى كتاب فى يده، ونور تجلس فى صمت مستمعة إليه. خلعت سمرة الشبشب من قدمها، وأخذت تضربه بعنف وقوة. وأم جابر وراءها تصرخ: انتى يا بت.. يا بنت الكلب هى الغوله كلت عيالها.

ثم أمسكت الشبشب من يد سمرة، ونزلت به عليها. وسمرة تصرخ: يا أمه. تلات ساعات وانا بنادى عليه.. وهو قاعد فى

السما. صمتت أم جابر، وأخذت على فى حضنها وهو يبكى.

– كنت فين يا على وأمك بتدور عليك؟

جفف على دموعه، وهو ينهنه. كنت باقرا كتاب (على الزيبق) يا جدتى. ونور أهه شاهده.

تقدمت نور من جدتها وقالت: آه والله يا جده. أصل النهاردا كان عندنا حصة قراءه. ومس هند حكت لنا حكاية فاطمه أم على الزيبق. عشان النهاردا عيد الأم. كل سنه وانتى طيبه يا جده. أخرجت نور من جيبها زهرة حمراء، وأعطتها لجدتها وقبلتها، ثم نظرت تجاه سمرة، وهى تمسح دموعها: كل سنة وانتى طيبه يام.

مالت سمرة على على وقبلته فى رأسه، ثم أخذته فى حضنها وهى تبكى.

– يقطعنى يا على. يا ريت تنقطع إيدى.

ترك على حضن جدته، وجرى إلى حضن أمه، وبكى، ثم أخرج من جيبه وردة حمراء كبيرة وأعطاها لها. كل سنه وانتى طيبه يا مه.

***

ست عشرة امرأة فى بيت دردكه العجوز، يصنعن فيضاً من الحنان والحكايا.

أوكلت أمه لهن رعايته. بعد أن مات أبوه، فأصبح يتنقل بين ست عشرة شجرة من الفاكهة الطازجة التى لم تمس. يقطف ما يحلو له من الثمار فى براءة ودعة وخبث خفى، وطيبة جدته طاغية عليه. هكذا احتل (عليش) رعاية خالاته بعد رحيل أمه وتركه صغيراً وتزوجت آخر. وكان أخوه الأصغر يحتل رعاية جده

(حبشى) فيتنقل معه فى رحلاته الطويلة بين الأسواق والموالد يبيع بضاعته الراقدة فى الخرج على ظهر الحمار. (أقفال، مفاتيح، وسلاسل حديدية) كان حبشى يجلس طويلاً عند السلطان بجوار ابنته الصغرى سمرة وينادى (مفاتيح أعمر) ثم ينتقل بعد المولد إلى مولد آخر ساعياً وراء رزقه.

يحمل الطفل سيد صندوقاً صغيراً على كتفه وينادى مع جده (أصلح بوابير الجاز) وجده وراءه يجر حماره متابعاً له.. (ندق الألمونيا). كان الجد حبشى يستقبل بحفاوة بالغة فى (طنطا) مسقط رأسه، وجوار حبيبه (شيخ العرب) لقد ولدته أمه فى مولد (السيد) فقررت أن تسميه (حبشى) لسبب سواده الفاحم، وكانت ترفض أن ترضعه، وتردد: من أين لى بهذا العبد؟

جلس (سيد) الحفيد إلى جوار جده، وأخذ كل منهما يتطلع إلى جامع (السيد البدوى) عيون ملؤها الخشوع والرهبة. والنسوة يتوافدن على مكانهما لإصلاح بوابير الجاز. مد الجد يده داخل الخرج الملقى على الأرض، وأخرج قطعة (عيش مرحرح) أعطتها له امرأة مقابل تصليح قفل لها. ثم أخرج قطعة جبن وأخذ يأكل على دراديره الباهتة وهو يحدث حفيدة بحفاوة بالغة. اسمع يا شيخ العرب.

بكره الليلة الكبيرة. شالله يا سيد، عايزين نجبر بدرى، عشان نلحق مولد الدسوقى، شالله يا أهل الله.

صاح سيد زاعقا: يا جدى. أريد أن أرى أخى (عليش).

ضحك الجد وبانت دراديره، ثم مد يده وملس على رأسه وقال: ببركة السيد إن شاء الله.. سوف يحضر الشيخ (عليش) مع سمرة خالته وأم جابر ويقضى معنا الليلة الكبيرة.

تعجب السيد الصغير غير مصدق، وغير رافض. ولكنه قال:

وخالاتى الباقيات، أريد رؤيتهن.

ضحك الجد وضمه لصدره وهو يقهقه. يا شيخ سيد. كفياك طمع.

أنا لا أريد أن أرهق السيد البدوى بطلباتى فيطردنى من جواره.

تملق الشيخ الصغير جده، وداعبه وقال: اطلب يا جدى. وهو سوف يلبى طلبك.

قول شالله يا سيد، يا شيال الحمول.

ضحك الجد وقهقه مسروراً وهو يهز رأسه طرباً، وفرحاً.

- خالاتك كثيرات..

- ولكن سوف يأتى بهن السيد.

- يا شيال الحمول يا سيد.. أجب له طلبه.

وما هى إلا دقائق معدودات، مجرد أن طلب الجد. حتى كانت الخالات جالسات أمامه يقطعن رغيف العيش المرحرح، ويقضمن ويضحكن. وأم جابر تضحك.

- كده يا شيخ سيد. تجيبنى على ملا وشى حافيه ومن غير لباس.

ضحك الجد وهبد أم جابر على ظهرها.

- وهو من إمتى يا بنت العرب بتلبسيه. وتضاحكوا وضحك الصغير لأنه يعرف مغزى حديث جده. ثم تقدم من على ونور وقدم لهما قطعة من الجبن. وهما نائمان، على علي فخذ سمرة، ونور علي فخذ أم جابر. وأصوات المنشدين تأتي إليهم من بعيد.

يا ما في الجبل سواح ..

جاعدين في خلاويهم

بياكلوا المر واللحلاح ..

والحنضل حلي ليهم

يا مراكبي تعالي شوف ..

بعد الفجر بشوية

تلجاهم صفوف ..

وراخيين على الهدب طيه

***

لقد تخلصت هند من الأرق، والروح الحبيسة، ودخلت تصنع كوباً كبيراً من الشاى. أضاءت الشمعة الوحيدة داخلها، وجلست ترقب قدوم شخص ما، شخص يهذب الوحشة المخيفة داخلها، والغابة المترامية الأطراف حولها. النيل يسير فى هدوئه المعتاد قادماً من أعماق الماضى، حاملاً ثقل السنين والحضارات والغزوات والطاعة والترويض والتحدى والاستمرار. بلا تاريخ يأتى.. سيد الغزاة، بلا ماض يبحث عنه داخلها، وأثره يحتفظ به، شيء يخصه، مثل فرح خاص، أو ألم خاص، أو سر قديم من كهنة قدامى لم يذع له سر.

روحي لك يا زائر في الليل فدى ..

يا مؤنس وحشي إذا الليل هدى

إن كان فراقنا مع الصبح بدا ..

ما أسفر بعد ذاك صبح أبدا

أى كبوة تحتفظ بها ذاكرتك يا هند؟

إنه يأتى متوحداً، يغزوها، بعنف، بقوة، إنه يريد أن يقتحم

قلعتها المحصنة جيداً بالبخور والأحجبة، والأدعية والابتهالات. والأم المتربصة لها دائماً. كى لا يقربها أحد. إنه يريد أن يغزو تاريخها، أن يترك أثره فوق أطلالها المتناثرة عبر عصور من القهر والسجن والإحباط، عصور تقف أمامها منذ آلاف السنين وتوارثتها كما هى، سليمة لم تخدش شيئا قط. هى تقف متنهدة وهو يأتى مهدداً، ناشراً فحولته. أنت سيد الفاتحين؟ سيد الغزاة.

الطامع فىّ. تأتى قاطعاً الطريق فى لمح البصر، من مولد السيد البدوى، إلى مولد الدسوقى، إلى باقى الموالد فى جميع المحافظات.

وأخيراً: تأتى فى الرابع عشر من ربيع الثانى. ليلة السلطان، الليلة الكبيرة.

يأتى السيد بكل حشوده، بكل أحبائه، بكل مريديه، ودراويشه وشحاذيه.. ويأتى معهم (السيد وجده الحبشى) ابن أخو أم جابر، يجلس بجوار السلطان، شابا صغيراً، خط شاربه الأخضر، بالأمس فقط، هو اكتشف هذا صدفة. جاء يصلح ما أفسده الناس. (بوابير أعمر) تقف هند أمامه طفلة صغيرة فى الثامنة من عمرها، تمد يدها له (والنبى صلح لى الوابور). بلا هوية يتقدم، مثل الرمال المتحركة من وسط الناس، يمد يده، ويجلسها إلى جواره ضاحكاً: وانتى اسمك إيه يا أموره.

– اسمى هند.

يضحك السيد الصغير: هند بنت عتبه؟

تضحك الطفلة مصححة له الاسم: هند جعفر النوبى. يقف على الأرض محارباً قديماً. يحتل ربوتها المعشوبة بطحالب خضراء صغيرة متناثرة. يمد يده أسفل جلبابها وبدون أن تدرى،

ترى بقعة دم على الأرض.. تصمت. ثم تواصل توسلاتها: والنبى صلح لى الوابور، أمى هاتضربنى.

يا راحلا وجميل الصبر يتبعه ..
هل من سبيل إلى لقياك يتفق
ما أنصفتك جفوني وهى دامية ..
ولا وفي لك قلبي وهو يحترق

هى الطافية على سطح النيل الدائم الأبدى. من هنا.. من بلاد الطمى بولاق. وهو الآتى من بلاد بعيدة، بلا تاريخ يخصه. هى ابنة القمح والشعير والطوفان، ابنة الأزمنة والمكان والسلطان وثورة القاهرة. ابنة الإلهات الجميلات، يسجدن خشوعاً للرب، ابنة الكهنة، الساحرات العاشقات. تحمل خصوبة لا تنتهى. وهو يحمل التملك، يحمل هوية الغازى.

صرخت فيه أم جابر ونادته: أنتَ يا واكل ناسك، مشى الست هند، لحسن أمها تستغيبها. ومدت يدها أخذت وابور الجاز وأعطته له فى خشونة. ثم أخرجتك يا هند من الطابور الطويل وأخذت بيدك وأوصلتك إلى البيت.

– يا ست غزاله .. الست، هند أهه، لقيتها عند السلطان أبو العلا. والنبى يا ست ماتضربيها، الليلة مولد والدنيا زحمه.

صبت هند كوب الشاى، وخرجت إلى الصالة ثم أضاءت النور. لماذا تعود إلى روحى كى تستلبها، وترهق قلبى بعنادك الدائم؟ عندما اجتاز الحدود، ومد يده السيد الصغير، وأوقع منها بقعة دم صغيرة. هى لم تدرك مدى خفته، ومدى ترسب روحه داخلها. وستظل لسنوات طويلة تعانى من أثر ذلك. وأتى إليها قاهراً. وسكن إلى جوارها.. سكن جوار السلطان فى حجرة صغيرة

عند خالته. رفض أن يعود مع جده يدور فى الأسواق والموالد ويتنقل بين البلاد. جلس إلى جوارها (هند جعفر النوبى) القاطنة العمارة الفارهة أمام السلطان.

وكل فتى يهوى فإني إمامه ..
وإني بريء من فتى سامع العذل
ولي في الهوى علم تجل صفاته ..
ومن لم يفقهه الهوى فهو في جهل

★★★

كانت ابنة خماروية تتجمل وتخضب يديها بالحناء. ويغنى لها العامة أغانى جميلة.
كانت قطر الندى تطل من قصرها العالى. فترى بركة الزئبق. والأب عارياً يسبح داخلها متلذذاً. بنظرات الجميلة. وكاسراً حالة الأرق.

وتجمع البسطاء، الفلاحون والتجار والصناع والمغنون، يعدون جهاز العروس، وينشدون أجمل الأغنيات، أياماً وأياماً، وامتلأت الشوارع والحوارى بأغانيهم.

(يا حنه يا حنه يا حنه.. يا قطر الندى يا شباك حبيبى يا عينى.. جلاب الهوى).

الهواء البعيد المجهول.. يغذو النفس ببطء، يزيد الأرق.

وكان الأب مفتوناً بجميلته. حبيبته. يمامة روحه. كيف تبعد عنه. ذاهبة إلى بلاد بعيدة. بلاد أخرى. فيقتل أيامه حزناً على طائره المسافر. وليفته. عنبة قصره التى سيقطفها رجل غيره.

هنا في شوارع بولاق.. وثورة القاهرة والفرنسيس. هنا ترقد الجثث متفحمة، هنا بجوار جامع السلطان يسكن السيد، وأمامه تسكن السيدة هند. يسكن المريد الجديد بجوار حضرة جمالها.

انتهى كوب الشاى. دقت أم جابر الباب، قامت هند تفتح لها زاعقة: ما هو اللى اختشوا ماتوا كنتى فين يا وليه يا خرفانه طول النهار.

ضحكت أم جابر وهى تضع لفة كبيرة أمام هند. كنت فى المولد يا ست – شالله يا شيخ العرب.

هنا بلا معارك، بلا أمجاد، تسكن هند. بلا أحزان جديدة، تضاف إلى أحزانها القديمة. تكتب عنها، بلا آثار تكتشفها وتداريها. هناك شيء بعيد تحاول الإمساك به، يفلت، تحاول، يراوغ.

فتحت أم جابر اللفة، ووضعت طبقاً كبيراً من الحمص والحلوى، وهى تضحك وتمد يدها. قولى شالله يا سيد، يا شيال الحمول أرمى حمولك على الله يا بنتى.

ستظل النار مشتعلة مهما حاولت هند إطفاءها. هل جربت أثناء الليل أن تتمنى شخصاً بعينه فلا تجده؟ فيستبد بك الأرق، ويهجرك النوم، وتظل تبحث عن ملامحه الهاربة من تاريخ طفولة قديم، دون فائدة، دون أن تراه.

تربت أم جابر على كتفها بحنو، وتأخذها بين ذراعيها فى طيبة ودعة، وتجلسها أمامها، ثم تقرأ قصار السور والفاتحة.

مدت هند يدها وأخذت قطعة من الحلوى على شكل قطعة جبن بيضاء، ثم أخذت تقضمها ببطء، وهى تتأمل أم جابر جيداً، ثم قالت لها: ألا أنتى فاكره الشيخ سيد يا أم جابر؟

ضحكت أم جابر وهى تعتدل فى جلستها.

- قصدك الشيخ غراب داهيه تقطعه وتقطع سيرته. إيه فكرك بيه.

- فاكره يا أم جابر لما خطفنى وأنا صغيره، وراح شايلنى هيلا بيلا زى الحمامه، وأنا متعلقة فى رقبته.

- أيوا يا بنتى فاكره والناس اتلمت وبقت تصوت، وأمك تنده عليه وهو ولا سأل.

وأنا وقفت وصرخت وقلت: يا سلطان يا أبو العلا وقفه. راح موقفه فوق المئذنة وربطه. وأنا رحت طالعه بشويش على السلالم، وقمت جيباكى. ومن ساعتها ولحد النهاردا كل يوم ييجى غراب فى نفس الميعاد ويقف على المئذنه ويزعق: غاق.. غاق.

- ليه يا أم جابر؟

- عشان خان العهد، السلطان مرضيش يرجعه لأصله. السلطان حرسك ونزلك.

- ياه يا أم جابر كانت أيام.

- الله لا يعودها.. إيه فكرك بيها.

- احكى لى حكايه يا أم جابر.

- شالله يا أهل الله.

صلى على النبى يا ست. بيقولو كان فيه واحده اسمها (فاطمه بنت برى) خدت شرب أربعين والى من الصالحين. راح لها السيد البدوى وعمل راجل غلبان. راحت مسلطه عليه القمل، وقالت له: عليك يا قمل بيه. راح السيد مسلط النمل واكل القمل. قالت له: لازم تتجوزنى. قال لها: هاتى هون، وحطته على كفة ايديها، وتف فى قلب الهون، فراحت التفه خرمت الهون، وخرمت ايديها، وخرمت سابع أرض. قال لها: أنك أنتى مش مستحمله تفتى. إزاى تستحملى نطفتى؟ وسابها ومشى.

اعتدلت هند وقالت: طب أنت عرفتي حكاية «سمنون المحب».
ـ مين سمنون ده يا ست هند؟
ـ ده راجل متصوف، وكان عايش في العراق.
وسموه المحب لشدة حبه لله.
ـ وده إيه اللي حصل له؟

ـ بيقولوا في مره وقعت عين امرأة على جمال سمنون، وعرضت عليه نفسها. فرفض. راحت المرأة "للجنيد" وقالت له: قل لسمنون أن يتزوجني، فغضب منها الجنيد وطردها.
راحت "لغلام الخليل" واتهمت سمنون بتهمه أنه حاول يعتدي عليها.
سمع غلام الخليل الكلام. وراح للخليفه وزود من عنده عن سمنون وأفعاله.
ولما أمر الخليفه بقتله، وجه السياف بصدر الأمر. راح أنعقد لسانه.
ولما نام الخليفه بالليل شاف في المنام حد بيقوله: إن زوال روح سمنون مرتبط بزوال ملكه.
راح صاحي وأصدر أمره بالعفو عن سمنون.

شفتي يا أم الهم، إن مش فاطمه بنت بري بس هي اللي حبت السيد البدوي.
لكن طول عمر الحب زي النار لما يشب في القلب ولا مية الدنيا تنطفيه.
ـ ما هو يا ست هند اللي قبلنا قالوا:
الحب خايله، بنار هايله، عوج السليمه، وعدل الميله.
ـ ومين الميله بقى يا أم قويق؟
روحي نامي روحي، وأنت وليه خرفانه.

★★★

ثلاثة أيام، والسماء تمطر. وهند جالسة فى حجرتها، لا تخرج منها. هى تعودت على ذلك منذ كانت صغيرة، تكره البرد، ولا تحب الشتاء، وتصاب باكتئاب موسمى، لا تعرف سببا له. ولكن اليوم جلست أمام النافذة تتأمل النيل، والشمس قد أشرقت، فى يوم من أيام ديسمبر الباردة الشمس ترسل اشعتها على خجل واستحياء، وهى بين لحظة وأخرى تأتى متبخترة من خلف الضباب، تغمض عينا وتفتح عينا، وتبتسم على استحياء، وتشرق لهند: أيوه كده يا جميله أطلعي ونوري. مدت هند يديها خارج الشرفة وفردت أصابعها للشمس، فعلت ذلك مرات عديدة إلى أن تخلل الدفء أصابعها، وفرد الجلد من البرد بعض طياته أشعلت وابور السبرتو الذى أحضرته لها ناهد، ووضعت البراد الصغير لتصنع كوباً من الشاى ثم أخذت تتأمل الأفق الممتد، والشمس تخترقه بضوئها ودفئها وأشعتها. فتنتعش العصافير وتزقزق فرحة، وتفرد ريشها وتنشر جناحيها. نظرت هند إلى الجانب الآخر، رأت رجلا وابنته داخل قارب صيد صغير. الابنة تجدف بذراعيها. والأب ينشر الشباك فى الماء وهو واقف على القارب، ثم نادى بعلو صوته: أصباح الخير يا ست.

ردت هند بصوت أعلى كى يسمعها: معاك رزق؟

رفع الرجل صوته، وهو مازال مكانه على القارب ينشر شباكه.

– على الله بعد الضهر إنشاء الله، أعود بالطرحه والرزق اللى يطلع من السمك على وشك.

ثم أخذ يختفى القارب من أمام عينيها. والبنت مازالت تجدف بكل قوتها. رفعت هند البراد من على النار، وأطفأت الوابور، ثم سكبت كوباً كبيراً، وأخذت تحدث نفسها بصوت مسموع. كأن أحداً يجلس أمامها وتحدثه (كثيراً ما تفعل هذه العادة) تتحدث

بصوت واضح وهى تتأمل النيل وترشف الشاى.

(بالأمس حاضت ابنتى إنها فى الثالثة عشرة، إنها على مشارف الأنوثة، إنها فى مثل السن الذى أحببت فيه لأول مرة أستاذى).

كانت أكثر جرأة من كونها (طفلة) تعلن حبها وتقول بملء فيها (بحبك يا أستاذ) وهى فى حضرة الست أم هاشم. كان يمسك يدها ويقبض عليها جيداً. لقد أوصته أمها أن يشترى لها حذاءً جيداً.

أخذها من يدها وطاف بها. ظلا طوال اليوم يبحثان عن حذاء جيد، ولا يريدان العودة. هو يقبض على يدها الصغيرة فى يده. وهى تسكن وادعة صامتة. دخلا محل كشرى. طلب لها طبقاً كبيراً. أخذت تأكل بخجل طفولى، وأسقطت بعض الطعام على ملابسها. ضحك، ومسح لها بالفوطة فستانها، وقال بود وحنو: ولا يهمك.

ثم طلب طبقاً آخر من الأرز باللبن. فأخذت تأكل وهى خجلة، تضع القليل فى فمها. وهو يأكل بشراهة واستمتاع، وينظر إلى رقتها ويبتسم، ثم يحدثها بحذر.

– انتى خايفة تكلى؟ ولا يهمك كُلى براحتك، ماحدش بيبص على حد. كله مشغول بالأكل

وعندما نظرت إلى عينيه الجميلتين. كانت لأول مرة تراه مختلفاً، باسما، لا ينهرها، ولا يهددها بالضرب على الأخطاء، والتفتيش عن الواجب. ضحكت، ودارت فمها بالمنديل الذى فى يدها، وقالت له: انتَ طيب قوى يا أستاذ وانا بحبك.

نظر إلى عينيها، غير مصدق هذا الصوت الرقيق، الصغير، يخرج هكذا بسيطاً، رقيقاً، عذباً، مغرداً، كاسراً كل تابوهات الخوف، والخجل، والصرامة، والتعليمات.

وقال لها مندهشاً: عنيكى لونها عسلى. كيف لم أرهما من قبل؟

ثم أمسك يدها، وضغط عليها بقوة: انتى اليوم جميلة. كيف لم أراكى من قبل.

ثم أمسك يدها وخرجا معاً إلى الميدان الفسيح. قالت له ولم تعد تخجل أمام عينيه الجميلتين. وهو يبتسم فرحاً لاكتشافه لون عينيها:

- أنا عايزه أزور الست أم هاشم، وأزور القلعة والنبى يا أستاذ.

ضحك، وأمسك يدها بقوة. مابلاش أستاذ دى! قولى يا حمزه.

خلع حذاءه، وأمسك يدها. وفعلت مثله، خلعت حذاءها، ودخلت حافية القدمين، فى رشاقة وخفة لم تعهدها فى نفسها، وأخذت تقبل شباك الضريح بحب، والدموع تسيل من عينيها. ثم أخرجت بعض النقود، ووضعتها فى الصندوق. تبسم حمزة وقال لها: إيه دا يا هند؟

مسحت دموعها بظهر يدها، وهى مازالت ناظرة للأرض.

- ده نذر. كنت نادراه لأم هاشم. لو حبتنى قد ما بحبك.

ضحك غير مصدق هذه الطفلة، ثم وضع يده على كتفها وضمها بشوق إلى صدره:

- للدرجة دى بتحبينى. أنا بحسبك بتضحكى.

غضبت هند من حديثه، وتركت يدها من يده: بحبك قوى يا أستاذ. وربنا اللى يعلم.

خرج غير مصدق ما رآه وسمعه، وغير متأكد من مشاعر هذه الطفلة الصغيرة، التى عهدت الأم له أن يشترى لها حذاء جديداً.

تحبه هكذا!

أخذها من يدها الصغيرة، وظلا يسيران في الشوارع، غير عابئين بالوقت، يحكي لها الحكايات القديمة التى سمعها والتى قرأها في كتب التاريخ، وحكى لها عن انضمامه إلى الفرقة الصوفية في قريته، وكيف كان مريدا طيبا وه 'يع ثم ضحك: أنت عارفة يا هند سنباط دى بلد الفن والمغنى سمعت أن محمد فوزي، ورياض السنباطي كانوا يجوا عند ، ويتفرجوا على الآلات القديمة اللى عنده، أصل جدى أبو أم كان غاوى آلات، وأمي كان صوتها جميل وفيه بحه حلوة كنت أحب أسمعها وأنا بذاكر، وجدى قاللي آن أبويا الشيخ محمد الله يرحمه كان بيغني مواويل في الموالد، وجدى يعزف له على الربابة، وحب أمي وأجوزها.. لكن مات قبل ما تولد راح بلدهم وما رجعش.

أمسكت هند يد أستاذها وضغطت بقوة طفلة ناضجة، وقالت له بحنان وحب: ولا يهمك يا أستاذ أنت هنا بين أهلك، ثم ضغطت أكثر والنبي سمعني موال من اللى كان بيغنيهم أبوك، أكيد الست والدتك، غنت لك منها موال.

أنا من قلة الخال ختك يا غريب خالي
حطيت رجلي على المليان
سقطت وجت في الخالي
أنا عايزلي ضمار يضمر على حالي
قالي شقي البخت من يومك
خدوا غزالك
وصبحوا موطنك خالي.

أخذت تصفق هند بيدها: الله يا أستاذ، صوتك حلو، قوي.

سيبك من دروس التاريخ واشتغل مغني.

ضحك حمزة وضم يدها بين يديه: يا هند التاريخ طعمه حلو زى المغني بالظبط كل عصر وله موال، ساعه يبقى فرح وساعه يبقي حزين، هى الحياه كدا كل ساعه في حال.

- يا أستاذ، التاريخ كله حروب ومعارك وناس ماتت وناس انتصرت، تاريخ موت مش حياه.

- يا هند، التاريخ هو الناس، أنا وأنت، والناس اللى حوالينا، بس محدش كتب عنهم غير المواويل والحكايات والنكت.

بكره لما تكبري وتقري تعرفي إن التاريخ مش هو اللي في كتاب المدرسه، لأ، التاريخ هناك في الكتب على الرفوف أقري ابن إياس والجبرتي، وأنت تعرفي.

- يا أستاذ، أنا عايزه أعرف أنا ليه كدا! خايفه أكلمك، وامش معاك، وأحبك بحريه.

- يا هند، ده حاجه تانيه، في أوروبا ده عادي ومن حقك. لكن احنا هنا، لازم نفكر الأول إيه الصح وإيه الغلط، نقرا التاريخ بجد ومن المصادر، حاولي تقري يا هند.

وأول كتاب (عبد الرحمن الرافعي) وبعد كدا (الجبرتي) وده مهم جداً بالنسبة لك.

حاولي تسمعى كويس، لأن ده مهم، وبعدين تقري بتمعن وهدوء، واللى ما تعرفهوش، أنا أساعدك، مش احنا خلاص بقينا أصحاب.

(أحباب يا أستاذ أحباب)

وضعت هند البراد ثانية على النار.

لتصنع كوباً جديداً من الشاى، وهى مازالت تتذكر أحداث ذلك اليوم البعيد، وكيف عاهدها حمزة أن يفكر فى الأمر، وربما يكون

يحبها ويبادلها نفس المشاعر وهو لا يدرى.

العبد إذا تخلق ثم يحقق، ثم جذب، اضمحلت ذاته، وذهبت صفاته، وتخلص من السوى، فعند ذلك تلوح له بروق بالحق بالحق، فيطلع على كل شيء، ويرى الله عند كل شيء، وهذا أول المقامات.

سمعت طرقاً خفيفاً على الباب، نادت بعلو صوتها: ادخل الباب مفتوح.

دخلت أم جابر وهى تحمل على رأسها قفة كبيرة مليئة بخيرات كثيرة (جبن وزبد وعيش مرحرح) نظرت هند تجاهها وضحكت. كنتى فين يا وليه اليومين اللى فاتو؟

اقتربت أم جابر، وجلست على الأرض أمامها. كنت فى مولد الست أم هاشم.

ضحكت هند، وهبدت أم جابر على كتفها بقوة. يا وليه يا خرفانه. مش ناوية تبطلى موالد. بقيتى عضمه كبيره.

مسحت أم جابر وجهها بطرف طرحتها وهى تضحك: يوه يا ست. اللى فيه داء ما يبطلوش. واللى خلق الخلق. أنا كنت فى الحمام.

ولا كان على بالى مولد ولا دياوله. ما حسيت إلا باللى بيشلنى هيلا بيلا، ويرمينى قدام المقام.

رحت لقيت المخفى عليش، وعماته قاعدين بيتغدوا سمك. وأول ماشافونى، نزلوا هات يا ضحك كركركر. ضحكت، وقلت لهم: مالك يا مفضوحه انتى وهى، بتضحكوا على إيه؟ قالوا: أصل يا خاله لو كنا طلبنا ألف جنيه، ماكنش جه، إحنا لسه بنقول: يا أم هاشم ابعتيها، بصينا لقيناكى قدمنا. ضحكت أم جابر وأخذت تضرب كفا بكف.

– والله ياست هند أنا كنت بعمل زى الناس، ولسه ماخلصتش، لقيت اللى بيشلنى ويهبدنى على الأرض.

أطفأت هند الوابور وصبت الشاى فى كوبين ومدت يدها بكوب منهما لأم جابر، وهى تضحك. يا عنى يا وليه، عايزانى أصدق أن السيده زينب شالتك هيلا بيلا ورمتك عندها.

– وحياتك حصل، ولا روحى تطلع.

– طلعت روحك يا وليه، تسيبى العيال لوحدهم يومين، وتسرحى فى الموالد زى الكلبه، وسحبه مرات ابنك وراكى، والواد والبت لوحدهم فى البيت. البت حاضت يا مرة، اركزى، واعقلى.

ضحكت أم جابر، وأخذت تهبد بيديها على صدرها مرة، وعلى الأرض مره غير مصدقة، ثم قامت واقفة، وملأت البيت بالزغاريد والرقص كأن بها مس.

– والنبى حصل يا ست؟ يا مشالله يا مشالله. والله كبرنا وادورنا، وخراط البنات خراطنا.

نظرت هند إلى أم جابر نظرة غاضبة، أوقعتها على الأرض من كثرة الرقص، ثم صمتت على إثرها، وهى تدارى فمها بيدها، وتصنعت أنها تشرب من كوب الشاى، وهى تتمتم ببعض الأدعية والتعاويذ، ثم قراءة المعوذتين والفاتحة والصمدية.

نظرت هند إليها متفحصة. يا وليه البت إمبارح جاتنى معيطه، ومش عارفه مالها، ولما سألتها؛ قعدت تلف وتدور، وبعدين حكت لى إنها لقت دم فى الكيلوت.

دون أن تنظر أم جابر تجاه هند، لشعورها بالخزى، والتقصير، قالت فى أدب وهدوء: نور أخت على. وهو بيخاف عليها زى عينيه.

– والشيطان، يا أم أربعه وأربعين.

– إن كنتى خايفه عليها، خليها عندك. جحا أولى بلحم توره.

هبدت هند أم جابر على رأسها بقوة وعنف صارخة فيها. يا مجنونه. أخدها أزاى، وهى عارفه إن على أخوها: وجابر أبوها وسمره أمها، وانتى سبب المصايب. يومها قلت لك سيبى سورتها تموت. قلتى حرام، ورحتى حطتيها جنب مرات ابنك وقلتى جابت توءم. مع إن الواد أسود. والبت بيضه، وشعرها أصفر. أرجع أخدها إزاى.

مسحت أم جابر دموع عينيها، وبصوت حزين وضعيف: خير تعمل، شر تلاقى، ربنا أمر بالستر. وانا سترت عليكى، ودى بنتك من دمك.

– دم أما يلهفك. قومى صحيها وخديها معاكى. واوعى تسيبيها تانى، ماطرح ماتروحى خديها، فاهمه.

– حاضر. أى أوامر تانى.

مدت هند يدها بالكوبين وقالت بغضب: اغسلى دوول.

انصرفت أم جابر تجاه المطبخ، وهى تمسح دموعها التى نزلت على خديها، وهى تردد بصوت ضعيف: اتحكموا ـ ـ ى مالكتونا.. إحنا العبود وانتو اشترتونا.

صاحت هند صارخة بحدة وعنف: إيه يا أم قويق.

رفعت أم جابر صوتها. وأخذت تنادى: يا نور. يا نورى. اصحى يا عين ستك. جبتلك غوايش وحلق من عند الست أم هاشم. قومى يا عينى قومى. ثم أخذت ترقص، وتصفق بيديها وتغنى:

البت قالت لأبوها ولا اختشت منه
توب الحيا داب والنهد بان منه
والزرع اللى بحري البلد طاب.. عجل عليه لمه
لطير الظنايا يقطعوا النوار منه... ويعولوك همه.

يا نور، يا نوري، قومي يا عين ستك، قومي يا قمر.

عملت لك كوباية كركادية سخن، يحمر خدود الصبايا، الصبايا الملاح، اللى أدورو، ونورو، وبقوا عرايس:

قاله رمانك طاب يا بدر
قولى الرطل منه بإيه
قاله أنت عيان ولا دهشان ولا إيه
يا خي قولي ربع الوقية بإيه
قاله ده شيء غالي
ملفوف في ورق ومخالي
لما أنت خالي وأصل أبوك خالي
تلوم على المبالي ليه.

ثم دخلت حجرة نور وهى مازالت تغني وترقص والكوب في يدها. ونور جالسة على السرير صامتة وخائفة.

- نور يا عين ستك، ونن عينيها من جوه. كبرتى يا نواره، وبقيتى عروسه.

ألقت نور بكامل ثقلها على صدر جدتها وأخذت تبكي: كدا يا جده تسيبيني لوحدى أنا وعلي، وفضلنا نعيط أنا وهو.

- يا حبة قلبي ونن العين، سماح يا نواره.

الست أم هاشم نادتني، وأنت عارفه، مقدرش.. ألست كرامها زايد وفايض، شوفي يا نوري جبت لك إيه غوايش نايلون، وحلق بدلايه، وخلخال فضة.

وبكرة أجيب لك حاجات حلوه كتير، دانا هاشورك، شوار من الغالي. حرير في حرير، ودهب بندقي، وكل الحاجات لست البنات. خدي يا نور، خدى أشربي.

أخذت نور الكوب من جدتها وأخذت تشرب في بطء.

وأم جابر تملس بيديها على رأسها وهي تقرأ عليها بعض الأدعية: سبحانه الشافي العافي. الأولة باسم الله، والثانية باسم الله، والتالتة لا حول ولا قوة إلى بالله.

ثم أمسكت ورقة من النتيجة المجاورة للسرير وصنعت منها عروسة، وأخذت إبرة من رأسها وأخذت تثقب الورقة وهى تردد: من عيني. ومن عيني الست هند

والست ناهد وعين علي، وسمره، وجابر. وكل اللي شافوكي، ورآوكي، ولا صلوش على الحبيب النبي.

قم قامت واقفة، ودخلت المطبخ، وآحرقت العروسه، وعادت مسرعه، تلقي بالرماد على الأرض، وتدوسه بكعب قدمها اليسرى، وهى تبصق: روحي يا عين، روحي يا عين. ثم صنعت بالرماد صليب على قورة نور.

صرخت هند من الخارج عندما شمت رائحة النار: أنت يا وليه يا خرفانه، يا بتاعة الموالد بطلي خرافات بقي. خرجت أم جابر وفى يدها نور.

ـ خرفات إيه يا ست، صلى على النبي. العين فلقت الحجر.

ـ أنا هاحسد نور يا أم جهل.

ـ يوه بقي، ما يحسد المال إلا أصحابه. صلي على النبي صلي.

ـ عليه الصلاة والسلام. يا أم قويق

أخذت أم جابر نور في يديها، وسارت بها من الزمالك إلى بولاق، وهى ما زالت تغني مرة، وترقص مرة، وتقرأ قصار السور، وعندما تصادف أحدا في الطريق تبسمل وتقول: روحي يا عين روحي.. وتغني

لولاك يا حلو لولاك .. لم كنا جينا هنا لولاك
يا مورد الخدين .. سبونا العدا وياك
والله ما تيجي يا جميل .. لقعدك قعدة السطان ع الكرسي
وازمزم الكاس وأسقيك من جلاب تونس .. يا أعز من نور عيني
سلامات.

عبرت أم جابر الكوبرى وهي في كامل نشوتها، وحيويتها، ثم أقتربت من ضريح السلطان وملست على بابة المغلق: والنبي يا سلطان، احميها، وأحرسها، زي ما حرست أمها، وحامتها من الشيخ سيد، أنا سايقه عليك حبيبك المصطفى والست أم هاشم رئيسه الديوان والأقطاب الأربعه: السيد البدوي، والدسوقي، وأبو الحجاج والقناوي، تحميها، وتخليها وحياة الحسن والحسين تحرسها.

★★★

منذ هذه الليلة. ليلة اكتشاف حيض نور. أصبحت هند شخصية حادة، تصرخ بأعلى صوتها، لأقل خطأ تفعله أم جابر، ولو دون قصد. وقدمت على طلب إجازة، حتى تستريح، وقررت فى داخل نفسها، أن تذهب إلى طبيب نفسانى، كى يعطيها بعض المهدئات.

وبعد أن نصحتها ناهد بأن تظل نور تحت عينيها، وتبقيها معها فى البيت بأى حجة تراها، ومنذ ذلك اليوم، بقيت نور تضىء حياة هند بشكل آخر. شكل جديد لم تتعود عليه، أصبحت البهجة تحيط بالمكان، وكأن نورا سقط فوقه، وشعرت هند تجاهها بمشاعر أم حقيقية، ظلت تخفيها لسنوات طويلة. وتحدثت مع ناهد بأنها سوف تتبنى البنت، وتكتب نصف ميراثها لها، وربما

يكون مناصفة بينها وبين على.

جاءت نور من الحجرة، وهى تفرد ذراعيها، وألقت بنفسها فى حجر هند وهى تصيح: صباح الخير يا مس. ضمتها هند إلى صدرها بحب وقالت: صباح الخير يا نور. وأخذت تملس على شعرها الأصفر الجميل، وهى تهدهدها: نمتى كويس.

هزت نور رأسها وقالت بأدب: أيوه يا مس.

أخذت هند تقلب كوب الشاى بهدوء وبطء وهى تنظر إلى الخارج شاردة، وتحاول أن تتفادى نظرات نور التى تتأملها جيداً.. بنظرة جديدة عليها. قالت هند بصوت ناعم: إيه رأيك يا نور لو تعيشى معايا هنا؟

ضحكت نور فرحة، وعينيها تشرقان: آنا ياميس.

– نعم.

– أعيش هنا.

– نعم.

– وأقولك يا ست. واخدمك زى ستى.

– لأ.

لم تنتبه هند لحدة الرفض التى صدرت منها، فعادت بنظرها إلى نور ضاحكة.

– بلاش ست. قوليلى يا ماما.

أخذت نور تضم هند إلى صدرها الصغير بقوة وحب غير مصدقة.

– صحيح يا مس.

– بلاش مس. قوليلى يا ماما.

– حاضر.

مدت هند يدها على رأس ابنتها بتحنان وحب وأخذت تملس

على شعرها المنسدل وهى تحاول بقدر طاقتها كبح مشاعر الأمومة التى طفت فجأة وبقوة من قلبها ولكن غلبها الشوق، فأخذت نور بين ذراعيها وضمتها بقوة وعمق غير متناهية وهى تبكى، بصوت مسموع وتقبل رأسها. يا حبيبتى سامحينى.

اقتربت أم جابر وهى تتصنع الشجاعة والقوة وتمسح دموعها: ياللا يا نور. الحمام جاهز.

ثم أخذت البنت من يدها.

صرخت هند زاعقة.

– يا وليه ياخرفانه. البت كبرت. روحى يا نور الحمام لوحدك.

قامت نور وهى فرحة متجهة إلى الحمام، ثم عادت وقبلت رأس هند.

– حاضر ياماما. أنا بحبك قوى. ثم انصرفت.

جلست أم جابر على الأرض أمام هند كعادتها وهى تتأمل الوجه الجديد الهادئ، والمشاعر الجديدة الطافية بنبل وقوة، ثم قالت [illegible] حرتها يا بنت سيدى.

دون [illegible] ر هند تجاهها.

– ولا حاجة يا أم جابر، اوعى تقولى لحد حاجه.

– أنا فاهمه يا ست.

– خصوصاً جابر وسمره.

– وعلى.

– وعلى.

***

كل ما كانت هند تريده من أم عسلية هو أن تحكى لها تاريخاً مختلفاً لم تعشه هند، تاريخاً عن الزمن الآنى.

بعيداً ومختلفاً عن جنون أم جابر بالموالد والأولياء والحكايات والدراويش والسيد البدوى والسلطان وأم هاشم وآل البيت.

حكايات عن الشياطين الجدد، والعفاريت التى سكنت بولاق الآن، بعد أن هجرها أهلها الناس القدامى الأصليين وسكنها الهاموش كما كانت تسميهم أم جابر. أم عسلية امرأة نقيضة أم جابر تماماً. لا تهتم بكرامات الأولياء، ولا قصص الصديقين وأهل الخطوة. ولكن كل ما كانت تهتم به هو العالم السفلى للجان والعفاريت الذين ظهروا فجأة فوق سطح الأرض وملأوا الشوارع والأسواق. وكيف تحافظ على مكان جلوسها فى شارع السكة الجديدة أمام دكان. (زكى السماك) ولكى لا يحتل أحد مكانها، كانت تستيقظ مبكراً، تفرش الأرض بالخضار الطازج. مشنة الفجل والجرجير، وعلى الضحى تأتى إليها ابنتها (فاطنه الشرشوحه) وهى تجر خلفها طابورا طويلا من الشياطين أولادها، والذين كانت تستغيث منهم بولاق جميعاً، رغم صغر سنهم. تربعت أم عسلية وجلست أمام الدكان، وأخذت تنادى

بصوتها الرنان (الورور.. وراور يا فجل وزغاليل) يتقدم منها أول المستفتحين الأستاذ (أبو الحجاج) يشترى منها حزمتين من الفجل وهو يصر دائماً على سؤالها (ورور يا أم عسليه) ترد هى عليه بصوتها الذى به غنجة خفيفة (ورور يا بيه) ثم تأخذ منه العشرة قروش وتقبلها وهى تردد بغنج أكبر (صباحك قشطة). ينصرف أبو الحجاج وتتبعه أم عسلية بندائها (الورور، الحمام) ثم يسير بضع خطوات، ويعبر الطريق، ويفتح باب المدرسة ويدخل.

وعندما يراه بعض المدرسين الخبثاء، ينطلقون فى صيحة واحدة (ورور) ثم يكتمون الضحك. يلقى عليهم نظرة ثاقبة ثم يردد (موتوا بغيظكم) ويدخل المكتب، يلقى حزمتى الفجل فى الدرج ثم يغلقة بالمفتاح جيداً. يخرج من المكتب، يأمر الفراش أن يغلق الباب ويضرب جرس المدرسة، ثم يأخذ دفتر الحضور والانصراف يغلق عليه الدرج، ثم يخرج دفتر التأخيرات ويضعه أمامه على المكتب.

كان شباك حجرة المكتب يطل على الشارع العمومى، والشباك الآخر يطل على حوش المدرسة، فهو من ناحية يتابع سير العربات فى الشارع، ومن ناحية أخرى يتابع سير الطابور والنظام. يأتى بعض المدرسين، يقفون على الباب، يتراكم عددهم، يقفون لحظات طويلة، يتصنع هو أنه يبحث عن المفتاح، ثم ينادى بعلو صوته: (يا كركر) افتح الباب. يتقدم كركر أقدم فراش فى المدرسة يفتح الباب وهو يردد: يالله يا كركور انت وهو.. كركر. كركر الدفتر.

ثم يغلق الباب، ويعود يعطى المفتاح للناظر وهو يحدثه (خلاص كركرنا الباب والكراكير جم). يضحك أبو الحجاج بملء فيه وهو منشرح الصدر لأن الجميع وقع فى التأخيرات، ثم يرجع بظهره للخلف ويردد: لسه يا عم كركر. الأستاذة ناهد. يضحك

كركر، ويخبط كفا بكف وهو يفهم مغزى ونظرات الناظر (والله يا كركور...) ثم ينظر من الشباك يرى ناهد قادمة تجرى فى سرعة ووراءها التوءم محمد ومحمود، ثم تهبد بيديها على الباب وهى تنادى (افتح يا كركر).

يغمز له أبو الحجاج أن يتلكع لبضع دقائق قبل أن يفتح، يتصنع أنه يبحث عن المفتاح. ثم يتقدم كركر ببطء ويفتح. تنهره ناهد منفعلة. كدا يا عم كركر. أهو زمان ورور طلع دفتر التأخيرات. يضحك كركر وهو يحاول زم شفتيه.

- ما أنتَ يا كركور اتأخرت. والكراكير كركروا من بدرى. وكركر طلع الدفتر. ادخل يا كركور انتَ وهو. تدخل ناهد المكتب مرتبكة ومنفعلة وهى تنظر إلى الساعة المعلقة على الحائط وتمسك القلم وتمضى: ياربى الساعة تمانيه.

ينظر إليها أبو الحجاج متفحصاً بنظرات غاضبة ثم يأخذ الدفتر من يدها ويدون ساعة الحضور. الطابور مهم، من صميم العمل. ولا ناموسيتك كانت كحلى.

تضحك ناهد فهى تفهم مغزى حديثه وغرضه: لأ. كانت بنفسجى.

ثم تتقدم نحو الباب لتخرج، ثم تدخل رأسها: ولا أقولك كانت بمبى.

ثم تواصل ضحكاتها، وتنصرف، تذهب إلى الطابور، وتقف إلى جوار هند.

- صباح الخير يا هند.

- صباح النور. مالك؟

- كالعادة عمك ورور هبدنى تأخير على الصبح.

تضع هند يدها فى يد ناهد وتضغط عليها. ولا يهمك. دلوقتى

يشيل التأخير، ويمضى لك فى الدفتر، هو بس بيحب يناغشك.
تضحك ناهد وهى تفتح الشنطة. ناغشه قرد. هو فاكرنى إيه؟ بابيع ورور.
تنفجر هند فى الضحك، وترى أمامها الناظر، واقفاً فى يده العصا وينهر الأطفال على التأخير. تخرج ناهد منديلاً تمسح وجهها ويديها.
- شفتى أهو هايطلع غلبه فى العيال.
- ولا يهمك. سببيه يطق.
ثم تنصرفان كل منهما إلى فصلها، ويظل هو واقفاً، بعد انصراف الطابور، يخرج الخرطوم من دورة المياه ويرش الحوش، ويسقى الزرع. والفراشون وراءه يكنسون وينظفون دورات المياه. يتقدم الفراش كركر ويقترب منه.
- خلاص يا كركر.. كركرنا الحمام.. وعايزين نكركر العيال.
يضحك أبو الحجاج فهو يفهم ما يريد، يهز رأسه موافقاً.
يرفع الفراش صندوق الحلوى على كتفه، ويتقدم نحو الفصول وهو ينادى: ياللا يا كراكير.. كركر جه.
يدخل فصل ناهد أولاً. يدفع الباب دون إذن، يضع صندوق الحلوى على الدرج.
- ياللا يا كركور.. قبل ما نكركر.
تستدير ناهد ناحيته صارخة. يا عم كركر. هو احنا لسه قلنا يا فتاح يا عليم. استنا لما آخد الغياب.
يقفز التلاميذ فوق الأدراج مهرلوين، صائحين.
- هات يا عم كركر.
- وانا يا عم كركر.
- وانا

يحدث هرج وفوضى داخل الفصل. يدخل الناظر صائحاً. تقف ناهد صامتة.. ثم تصرخ فى الأولاد كى ينصرفوا. ينسحب كركر خارجاً فى هدوء وهو يحمل الصندوق. يمسك أبو الحجاج القلم ويمضى فى دفتر التحضير، ثم يقف على الباب لحظات. وقبل أن يخرج : اسمعى يا أبلة عندك لفت نظر.

تغضب ناهد، وتلقى بالطباشير على الأرض، ثم تجلس على الكرسى غاضبة، يتحلق الأطفال حولها باكين: آسفين يا مس. معلش.

ينصرف أبو الحجاج مبهوراً بانتصاره، واستفزازها.

يمر كركر من أمام باب فصل هند ولا يدخله، يدخل الفصل المجاور وينادى.

– يااللا ياكركور، قبل ما نكركر.

يصيح الصغار زاعقين، مهللين.

– هيه عم كركر جه.

– عم كركر هات عسليه.

يمر أبو الحجاج من أمام الفصل ولا يدخل، ثم يذهب إلى مكتبه. فى التاسعة تماماً يدخل (عسلية) صبى الكشك المجاور للمدرسة حاملاً كوباً كبيراً من الشاى باللبن ويضعه أمام الناظر: أى خدمة تانى يا باشا.

يشير له أبو الحجاج أن ينصرف، ولكنه يناديه ثانية: يا عسلية. أنتَ يا زفت.

يعود عسليه مسرعاً فى خفة: أيوه يا بيه.

– اوعى حسك عينك، أشوفك مدخل شاى للمدرسين. فاهم.

يمسح عسليه على رأسه وهو يبتسم. عيب يا بيه. لا ممكن أبداً. حضرتك وبس.

- عال.

ينصرف عسلية وهو يغنى ويصفر ويخبط بيديه على الصينية نقرات منتظمة.

عجبي على حتة حليوه
في أيدها اليمين خاتم
طلبت منها الوصال
قالت يا جدع رب العباد خاتم
وإذا كان بدك في يا جميل
روح لأبويا بحري البلد حاكم
وعدله المهر على كفه وتعالى
نطير الدم اللي ليه زمان خاتم.

يصطدم وهو خارجا بأم جابر، يوقفها قليلا، ثم يضحك: فكرتى يا أم جابر.. أجيب الشبكة لنور وأجي أمتى؟ هبدته أم جابر على كتفه وهى تضحك: لما تكبر يا نونو. وأمك تبطل تبيع الفجل ... الورور.

يغتاظ عسلية ويخرج من الباب مزمجرا.

تبصق أم جابر وراءه، وهى تضحك: جر يا نخنوخ على أمك، قال نور قال. دى ست العرايس.

دى بنت الأكابر، يا ورور.. ثم تصطدم بناهد.. وتناديها.. ياست ناهد يا أستاذه.

تدخل ناهد المكتب غاضبة: يا عنى بتحلله لنفسك، وتحرمه على الناس.

ثم تأخذ كوب الشاي باللبن من يده وتشرب منه: راسى وجعانى.

فهو يعرف مغزى هذا الحوار ويقدره تماماً. ثم يقول بمكر: وافقى وانا افتحلك قهوة يا جميل.

– وتشيل التأخير.

– ونشطب الغياب كمان، ولا يهمك يا قمر.

– ولفت النظر.

– طظ. يا عنى هو تحقيق.

– والعيال محمد ومحمود .

– فى نن العين، بس انتَ شاور وقول حاضر.

– والفجل يا ورور

– فجل مين، دا حتى دبلان. انتى مزرعة قلبى.

تهبد ناهد على الدرج بكل قوتها وتصيح: يا راجل، يا خرفان، ياللى ماعندك دم.

أنا الأستاذة ناهد وأخت الباشا أنور مأمور القسم، وخالي وعمي وجدي. سلالة بشوات وجدي البشتيلي أتساوى بام عسليه، بياعة الورور.

ينتفض أبو الحجاج، وهو يرى بعض العيون قد نظرت نحوهما، وكركر قادماً بصندوقه. خلاص كركرت. ثم يضع كيساً مليئاً بالنقود على المكتب.

تقبض ناهد على الكيس وهى تصرخ: والله ممكن أوديك فى داهيه. بتبيع عسلية فى المدرسة يا ناظر.

ثم أخذت تهلل وتصيح إلى أن تجمع بعض المدرسين فى المكتب.

فتح أبو الحجاج الدرج بسرعة وأخرج حزمتى الفجل من الدرج ووضعهما أمامه، ثم أخرج ورقة وقلماً وأخذ يكتب. س: لماذا يا أبله تقومين ببيع الحلويات فى الفصل؟

جـ:.....

س: لماذا خرج التلميذ من الفصل؟

جـ:.....

ملحوظة : تم ضبط حزمتين من الفجل فى يد التلميذ، وكوب شاى باللبن فى يد المعلمة أثناء الشرح داخل الفصل.

س: لماذا تأخرت اليوم عن طابور المدرسة؟

جـ: ....

س: لماذا تم تجاوز أيام العارضة؟

جـ:....

س: لماذا تركت الفصل دون إذن؟

جـ:....

ثم أخذ الفجل ووضعه داخل مظروف كبير وأغلقه، وأخذ بعض الحلوى ووضعها فى مظروف آخر، وأرفقهما بالتحقيق، بعد أن أجاب هو على الأسئلة كاملة. وناهد واقفة مندهشة، وكذلك المدرسين. ثم أمسك القلم ونادى: تعال يا عم إبراهيم أمضى هنا شاهد، أنك شفت الأستاذة ناهد بتبيع حلويات للتلاميذ داخل الفصل. صمت كركر مندهشاً، ثم أمسك القلم ومضى، ثم انصرف صامتاً.

– وانتَ يا أستاذ أنتَ وهو تعالوا أمضوا شاهدين على وقاحة الأبلة، واقتحامها المكتب دون إذن، وخروجها من الفصل، وإن الأبلة كانت ماسكة كيس النقود فى يد، وكوب الشاى باللبن فى اليد الأخرى.

انصرف المدرسون منزعجين من أفعاله، مذهولين من هذا التصرف، وتحايله على الموقف وقلبه لصالحه. ووقفت ناهد مندهشة غير مصدقة ما يحدث، ولم تستوعب ما حدث، وهذا الكابوس المحرج الذى وضعت فيه، وضعت كيس النقود على

المكتب وانصرفت صامتة غير مصدقة. وهي تحدث نفسها مزهولة..

- بقى أنا حفيدة الشيخ (مصطفى البشتيلي) تاجر الزيوت في بولاق، اللى قوم الثورة، ودوخ الفرنسيين من قنطرة الليمون، للأزبكية، لباب اللوق، للقصر العيني، وقاد الدنيا نار.

أجوز بتاع الورور ده.

على رأيك يا شيخ سيد درويش: عشنا وشوفنا. واللى يعيش يشوف العجب.

ثم سارت مزهولة تحدث نفسها في الشارع، وتركت المدرسة والأولاد، والشنطة وأم جابر تجري وراءها..

- يا ست ناهد، يا ست.

الست هند بتنده عليكي.

ثم أشارت لها ناهد بيدها أن تعود.. ثم سارت هي بمفردها، في الشوارع القديمة تشم رائحة البارود والثوار وهم ينظمون الصفوف ويقيمون المصانع لصنع البارود، وأن بيتهم في شارع الفرنساوي كان محزنا للبارود كما حكى لها بعد ذلك..

يقول الجبرتي: بدأت الثورة في حي بولاق، فإنها قامت على ساق واحد، وتحزم الحاج مصطفى البشتيلي وأمثاله من دعاة الثورة وهيجوا العامة وهيئوا عصيهم وأسلحتهم.

ويقول الجبرتي: أن الفرنسيين اعتقلوه قبل الثورة بعدة شهور، لما بلغهم أن بوكالته قدورا مملوءة بارود.

ففتشوا الوكالة ووجدوا البارود في القدور، فضبطوها واعتقلوه.. ثم خرج ووضع يده في يد الشيخ المحروقي والشيخ السادات ضد الفرنسيين.

أخذت الدموع تنهمر من عيني ناهد، وهي مازالت تسير في

الشوارع، إلى أن وصلت إلى الفرنساوي، وظلت واقفة، كأنها تنادي على جدها كي تحكى له ما يحدث الآن.. وهى غير مصدقة. ثم أنتبهت على يد توضع على كتفها وتناديها: كدا يا ناهد أجرى وراكي المشوار ده كله وأنده عليكي ما ترديش عليا استدارت ناهد وألقت بنفهسا في حضن هند، وهي تبكي: شفتي يا بنت خالي، على أخرة الزمن.

واحد لا نعرف أصله ولا فصله، لكن رب العباد شاء أنه يكون ناظر علينا، وإحنا ولاد الحسب والنسب والأصول نتبهدل.

ضمتها هند بقوة إلى صدرها: يا حبيبتي الأصول تاهت.. وده مش زمن جدك البشتيلي ولا زمن جدى اللى سافر في أول بعثة لمحمد علي مع رفاعة الطهطاوي وغيره.. ده زمن عديم اللون والطعم والرائحة. أخذت هند بيد ناهد وصعدت سلم البيت. ثم دخلتا حجرة الضيوف، وأخذتا تتأملين معا صور الأجداد، ويعدن الذكريات والزمن القديم. فكرة يا هند الصور دي.

واحنا صغيرين كنا نقعد نحكي ونضحك، وأمى الله يرحمها تحكي لنا حكايات عن جدها البشتيلي الكبير. وكان أخويا مصطفى وأنور يضحكوا مع أخوكي ويهزروا.. تاريخ عائلة البشتيلي يتحدث.

وأنت تغضبي لما أمي تاخد منك الصور وتقطعها، فكرك يا هند الزمن ده ممكن يرجع تاني. يا حبيبتي كل زمن وله تاريخه وحكاياته.

فاكرة لما دخلنا تحت السرير وطلعنا الصندوق وقعدنا نقرا جوابات وورق كتير. وأنا يومها خدت جواب كان كلامه عجبني بس مكنتش فاهمه معناه..

استنى الجواب لسه شيلاه لحد دلوقتي في السحارة، نفس

الصندوق يا هند .. حطة فيه قفطان أبويا وبرقع أمي، وأول بدلة لبسها أخويا أنور لما بقى ظابط.

غابت ناهد قليلا، ثم عادت بالصندوق، وأخذت تفتحه بهدوء، وهي تملأ رئتيها برائحة التاريخ والحب.
من محمد مظهر إلى صديقه...
عندما نزلت في مرسيليا ظهر لي جملة مناظر لم أرها من قبل، أولها جمال المباني مع علوها الشاهق هم الشوارع المرصوفة مع إتساعها، واستقامتها ثم إني سمعت جلبه لم أسمع مثلها ، ورأيت بعد ذلك عربات تجرها الجياد وهي أول مرة في حياتي أرى فيها هذا المنظر. وكانت تلك العربات لا ينقطع مرورها في الشوارع وقد أستولت على الدهشة عندما وقع بصري على السيدات الفرنسيات وقد سفرن بحرية بأزيائهن الجميلة في الشوارع والميادين والمتنزهات، الأمر الذي تأباه عادتنا وشرائع بلادنا.

طوت ناهد الجواب بعد أن قرأته ، ثم قبلته ووضعته في حضنها .. عارفة يا هند نفسي الزمن ده يرجع تاني.. زمن محمد على، والخديوي إسماعيل ، والملك فاروق. هبدتها هند على رأسها بقوة.. أنت مجنونة .. هو علشان واحد حمار، نضيع أمة. بكت ناهد ووضعت بيدها على وجهها.

- ماهو حرام.. دا ظلم، أنا بعمل اللي هو قاله ده. بيبع عسلية للعيال وبشتري فجل.. ناقص يقول أن أنا.. استغفر الله العظيم.

- يا ناهد... إن احتمال الظلم رضاء بقضاء الله... وعقابه للمظلوم على سوء ماقدمت يداه.

- لماذا الخصومة والإنسان لايملك في دنياه كثيرا ولا قليلا...؟

ـ هند.. مالك يا بنت خالي؟
ـ إن الظالم لايقدم على ظلم أحد من الناس إلا وهو في غفلة عن ربه، ولو أنه كان في يقظه لعرف أن الله يراه، وأنه يظلم أحد عباد الله.
ـ هند... أنا خايفة عليكي .. مالك.. إيه جرى لكل ده .. أنا خلاص مش زعلانه..
ويغور في دايه هو والتحقيق..
ـ مش التحقيق والظلم من أبي الحجاج.إمبارح حصل في شارع محمد مظهر بالزمالك حادث مروع، شنيع، يقف له شعر الرأس. أيمن السويدي، قتل المغنية ذكرى بستين طلقة، وقتل المساعد بتاعه ومراته، وبعدين قتل نفسه.
حادث لا عيني شافت ولا قلب رأي زيه، أنا سمعت الطلقات،وأنا في القصر، أفتكرت فيه مناورة، ولا الحرب قامت.
ـ يا لهوي ستين طلقه، ليه كانت قلعه، ولا ترسانه عايز يقتحمها.
ـ شفتي بقى إن ظلم أبو الحجاج لا يذكر.
دخلت أم جابر وهى تلهث وفى يدها جميع الجرائد التى صدرت في ذلك اليوم، ثم ألقت بهم على المنضدة: أنا رحت الزمالك، الدنيا مقلوبة.
يا ريت نفضل هنا النهارده، وعلى ونور، ومحمد محمود جاين ورايا.
فتحت هند وناهد الجرائد وأخذت كل منهما تقرأ في دهشة واستغراب.
حادث مقتل الفنانة ذكرى.

***

رأت هند فيما يرى النائم.

قلب حمزة مفتوحاً، وهى داخله تبكى بحرقة وانهيار. وعندما تحققت من صورتها جيداً.

أغلق حمزة قلبه وضمها إلى صدره بقوة، وقال لها: أحبك.

نامت هند ليلتين كاملتين، بعد أربعة عشر عاماً على فراقهما.

فى اليوم الذى توفى فيه حمزة، وقبل الحادث بدقائق. قالت له هند: لقد أوجعت قلبى يا حمزة. ضحك غير مصدق، وغير مبال، وضمها لصدره، فقالت له: لماذا تضمنى هكذا بعنف.

قال: وانتى معى أنسى ما حولى.

وقبل أن تمد يدها، وتفتح الباب، أخرجت من شنطتها سلسلة مفاتيح ذهبية، ومدت يدها فى ود، وأعطتها له: كل سنة وانتَ طيب.

قال مستغرباً: ما هذا؟

دون أن تلتفت نحوه، فتحت باب العربة بسرعة، ونزلت حاملة شنطتها فى يدها، وبعض الكراسات وتركته مكانه.

ناداها: يا هند.. هند.

لم تلتفت وراءها، وتركته، وسارت مبتعدة. أدار هو العربة بقوة وعنف، وهو يحاول صعود الرصيف كى يعبر إلى الجانب الآخر وراءها. أخذت تنظر بعينيها بعيداً، وهى تحاول أن تدارى دموعها. وحمزة الناس حوله غير مصدقين ما حدث.

اليوم هند رأته ثانية. نفس المشهد، نفس المكان. هو يحاول اللحاق بها، ويعبر الشارع. وهى تمسح دموعها مبتعدة. ولكن قلبه خرج وراءها، وصار يناديها. يا هند.. هند.

لم تلتفت نحوه، ولكن على بعد خطوات، قرب البيت – رأت نور واقفة تبكى، وقلب حمزة فى يدها ينزف دماً طازجاً، وتناديها.

يا هند.. هند.

استيقظت هند من غفوتها على صوت دق الباب. وأم جابر تهبد بيديها وتصرخ.

- يا ست هند.. يا ست هند، افتحى.

قامت هند بسرعة من نومها، وفتحت الباب. دخلت أم جابر وهى تلهث.

- الحقينى يا ست. مصيبة.

الست ناهد فى المستشفى.

***

من أين جاءتك كل هذه القسوة يا هند؟

وأنتِ توجهين حوارك نحو الجالس أمامك مثل تلميذ بليد، يفركِ يديه منتظراً العصا، وهو يحاول إرضاءك بشتى الطرق والوسائل. أغلقتِ عينيك على وجهه، وغضبتِ كثيراً منه، ومن جرأته المتناهية. والنبى يا مس... والنبى أنا آسف.

رفعتِ كفك الكبيرة، ونزلت بها على وجهه الصغير بكل قوة وغضبٍ، وفى حدة قاطعة: نور راحت فين يا على؟

وضع يده على وجهه، وأغلق عينيه قليلاً، كى يستحضر وجه نور أمام عينيه. هو الذى لم يرها. ثم قال معاتباً فى أدب: نور أختى.

سمعت ناهد صوت هند عالياً وهى تصرخ، وعلى واقفاً يبكى. فخرجت تجرى مسرعة، وفتحت ذراعيها وأخذت على بين أحضانها: على.. على معلش يا حبيبى.

اقترب على أكثر من حضنها، وهو يكاد أن يطير.

– والنبى يا مس ناهد. قولى لمس هند مش أنا السبب. مش أنا السبب.

نظرت هند نظرة قاسية تجاهه، ثم قالت وهى تبتعد بوجهها

عنه.

- مش كفاية كدا.

انكسف على وأغمض عينيه بخجل: أنا آسف يا مس.

تأخذ ناهد على من يده، وتأخذ هند باليد الأخرى: سامحيه يا هند. قدر ولطف. على كان هايضحى بحياته عشان نور. السواق هو السبب. كان بيعدى بالعربية، وطلع على الرصيف.

قبل على يد هند وخرج من الحجرة وهو يبكى. وناهد تجرى وراءه: تعال يا على، تعال يا حبيبى. ثم أخذته من يده، وسارا فى طرقة طويلة إلى أن وصلا إلى حجرة نور.

جرى على نحوها، وهى راقدة على السرير، وأخذ وجهها بين كفيه، وظل يقبلها بحب وشوق. ازيك يا نور. ازيك يا نورى. وحشتينى.

تفتح نور عينيها بهدوء وهى تبكى.

- كدا يا على تسيبنى لوحدى.

كنت هاموت. كنت فين يا على وانا بدور عليك.

دخلت هند الحجرة، وفتحت الشباك، ثم أخذت تنظر إلى الشارع والعربات المسرعة. وقف على إلى جوارها: والله يا مس، هى اللى سابت إيدى وجريت بسرعة.

تردد هند بصوت فيه أمر وشدة، ثم بنعومة قليلة: خلاص يا على.. قدر ولطف. أختك نور هاتفضل هنا يومين. إيه رأيك؟ أبقى تعال فى أى وقت.

يصمت على وينظر تجاه الأرض.

ثم تكمل هند حديثها الجاف الذى لم يتعود على عليه من قبل، فهو يعلم أنها تحبه وتعطف عليه، ولا تفرق بينه وبين نور. خلاص يا مس أنا آسف.

مدت هند يدها على رأسه، ثم أخذته بين أحضانها فى صمت، وقبلت رأسه بود.

– لما تحب تشوف يا على، نور، أبقى تعال.

خرج على حزيناً، وهو يشعر بشىء ما فقده. خرج يجر أذيال الخيبة، وهو الذى يتمنى عودة نور معه إلى بيتهما، يلعبان معاً، ويصنعان مشنقة يضع على رأسه داخلها، ثم تأتى نور على حصانها الخشبى، تقطع الحبل بطرف سيفها (المسطرة). وتخطفه على الحصان، وتهرب به. مثلما فعلت أم على الزيبق فى الحكاية. ثم يحملها على بين ذراعيه، ويدور بها على السطح، ويغنى لها أغانيه الجميلة.

– نور يا نورى.. يا قلب بنورى.. وسنه لولى.

وهى تضحك، تضحك، وتمسك رأسه بين صدرها وتضمها بقوة، وتغنى له.

– كنت فين يا على وأمك بتدور عليك.

وينام إلى جوارها، ساهراً، حارساً لها، وخائفاً عليها.

عند الباب وقف على قليلاً ثم أخرج من جيبه لفافة صغيرة، بها بعض الحلوى، ودخل منادياً: يا نور. حلاوة من عم كركر. العسلية اللى انتى بتحبيها.

ثم جرى نحوها بسرعة. أخذت ناهد اللفة من يده وقبلته على خده. تركها ثم هبط السلم سريعاً. وقد أدرك الآن أن شيئاً جديداً ينبض داخله، شيئاً مختلفاً عما كان يكنه لنور من قبل. وأدرك كذلك معنى الحرمان. جلست أم جابر على الأرض وهى تبكى. مدت ناهد يدها باللفة وقالت: خليها معاكى لما نور تصحى. أخذتها أم جابر، ووضعتها داخل صدرها. صحت نور من نومها، بعد إغفاءة طويلة، وأخذت تنادى: على.. يا على.

فرحت أم جابر، وأخذت تزغرد، ثم قامت من مكانها، وهى تجرى نحو السرير، وألقت بلفَّة الحلوى على صدر نور. وقفت ناهد، وأخذت اللفَّة وفتحتها بيدها، وهى تنادى: نور يا نورى.. يا قلب بنورى. وسنه لولى، تاخدى حته. ضحكت نور، ومدت يدها، وأخذت قطعة من الحلوى وقضمت فى صمت، وهى تتأمل الوجوه التى حولها.

***

وتتركنى بين ارتباكى وفرحتى.

وخوفى من أن يرانا أحد.

هكذا..

متوحدان، جسداً وروحاً.

وتركتنى.

كيف لبنت فى الثالثة عشرة، أن تفرق بين الحب وبهجة الانتظار، فى غرفة مظلمة؟

تترك لكَ الباب موارباً.

تفتحه وتدخل، بهدوء على أطراف أصابعك، (بنسوار) تقولها بخفة غير دقيقة فى النطق. كنت تريد الخروج من...؟

جلدك،

من بيئتك،

من لون عينيك،

من جلباب أبيك،

كنت تريد أن تخرجنى من...؛

الدفء وعدم المغامرة.. لى أسباب كثيرة للصمت. ولديك أسباب أكثر للبوح، للمضاجعة، للخوف من أبيك، من عيون الناس، من

أمسيات الشتاء الدافئة على السرير وسط براد الشاى، والأيادى الصغيرة تمتد.

- والنبى يا أستاذ فهمنى الكلمة دى؟
- والنبى يا أستاذ يعنى إيه طليطلة؟
- والنبى يا أستاذ بلاش درس بكره.

نفسنا نروح الفرح.

تضحك.

تغمز بعينيك ناحيتى.

- وماله روحوا الفرح.

يفرح الصغار، يصرخون مثل دجاجات خرجت من أعشاشها.

- هيه .. هيه.

وتلوك بين أسنانك جملة، ضعيفة.

- بس انتى مش هاتروحى الفرح.

فيه درس بكره.

وتأمن الأم على كلامك. تواطؤ خفى بينكما.

كيف لطفلة فى الثالثة عشرة، أن تدرك معنى الحرية؟ وكبت الذات، والزيارات؟

كيف لأم تلوك بين أسنانها: وماله!

أن تدرك معنى صدر طفلة ينبض فى فراغات الأسئلة، والحجرة المظلمة، والصغار فى الفرح.

- بتحبينى؟
- قوى.
- قد إيه؟
- قد الدنيا دى كلها.
- لأ قد عينيا.

- قد عينيك، لإن عينيك حلوة بشكل.

- يا حبيبتى.

مدت ناهد يدها، وأخذت قطعة من الحلوى وأعطتها لهند وهى تتأمل النيل والليل من النافذة. وهى تناديها: لماذا فعلتِ كل ذلك يا هند؟ لماذا كسرتِ قلب على؟

***

يا راحلا وجميل الصبر يتبعه ..

هل من سبيل إلى لقياك يتفق

ما أنصفتك جفوني وهى دامية ..

ولا وفى لك قلبي وهو يحترق

(ما كان لك يا هند أن تنهرى قلب على بهذا الشكل، وهو الصغير الذى جاء بالحلوى لأخته نور. والتى تقضمين منها الآن بلذة متناهية).

مدت ناهد يدها بقطعة أخرى من الحلوى وقالت: خدى يا هند.

مدت هند يدها، دون أن تنظر إليها، ومازال مشهد الصغار على السرير أمام عينيها، وصورة الأم وهى تمد يدها بكوب الشاى لحمزة وهو ينظر إلى هند، ويسألها: مالك؟

تغمز الأم بعينيها، وتنظر ناحيتها.

- هند عيانه.

يمسك حمزة بكوب الشاى ويمده ناحية هند، واليد الأخرى يضعها على قورتها كى يتأكد من حرارة جسدها. تنتفض هند عندما لمستها يده، ثم تزيحها فى سرعة وخفة، وتلم قدميها أسفل الفراش، وتضع رأسها بين فخذيها منكمشة، خائفة أن



تنظر إلى عينيه، فتضعف. وتكشف الأم أمرها.

يمد يده ثانية، يأخذ يدها ويقبلها فى حنو: ألف سلامة يا هند.

تنظر الأم مغتاظة من هذه الرقة. لقد وصلتها الرسالة، والشفرة العاشقة، ثم قالت غاضبة: إيه مافيش درس النهاردا؟

يقوم حمزة منتفضاً نحو حجرة المكتب، والصغار خلفه.

ويتركك وحدك على السرير، ومازالت رأسك بين كفيك، وجسدك يرتعش.

تمد الأم يدها تملس على رأسك وتتحدث بأسلوب آمر وشرس: أوعى يكون وعدك بالجواز؟

تهزين رأسك نافية. تطمئن الأم، وتبلع ريقها.

- الحمد لله. مبقاش إلا الغجر اللى نناسبهم.

ده مش من توبك ما حد عارف إن كان نقرتي ولا خشنى.

جملة فى البدء لم تدركى معناها يا هند. ولم تعلقى على كلام الأم. لكن وصلت الرسالة بما فيها من تهديد ووعيد وقسوة. كل ما كان يهمك فى هذه اللحظة، هو وضع يده على رأسك، وتقبيل يدك. وارتعاشة جسدك الذى أصبح ينتفض كلما رآه.

***

دبشرته الداكنة

وشعره الأسود الفاحم، وأنفه المستقيمة، وأسنانه البيضاء الناصعة، وعيناه العسليتان الواسعتان. كانت تتيه فيهما هند. بمجرد رؤيتهما، أو تصويبهما نحوها، وسؤالها عن الواجب.

كانت تفتح الكراسات بيدين مرتعشتين، ضعيفتين، خائفتان من ضرب العصا. وأحيانا كانت تحمر خجلاً إذا عنفها أمام الصغار.

أصبح جسدها ينحل كل يوم عن اليوم الذى قبله، كانت ترى فيه درجة من الجمال الفطرى الذى لم تره من قبل. وهو يحدثها بصوت دافئ حنون:

– أنا مش غجرى يا هند ولا نقرتي

مالى والغجر هذا زمن ضائع. أنا ابن المدينة.

– والأصل. يا حمزة

– يا هند أنا أرتدى ثوباً آخر.

– أصل الشىء يا حمزةً، هذه شريعة الأجداد.

– هند هذه شريعة أمك. إنها تكرهنى.

– أمى دائماً تكرمك. ولكنها تردد على مسامعى كل يوم، هذا ليس من توبك. احنا لا نتزوج الغجر. سامحني يا حمزة، يقوم واقفا يأخذ وجهها بين كفيه يقبل رأسها ثم يتركها ويخرج.

إن كان منزلتي في الحب عندكم ..

ما قد رأيت فقد ضيعت أيامي

وإن كان فرط وجدى في محبتكم ..

إثما فقد كثرت في الحب آثامي

***

دخلت ناهد على هند الحجرة وهى صامتة. وعندما رأتها نور قفزت فرحة.

– مس ناهد. ازيك يا مس.

آخذت ناهد نور بين ذراعيها وهى تضحك. بضاعتنا ردت إلينا. مالك يا بنت خالي.

. ممكن تدخلى أوضتك يا نور.

خرجت نور من الحجرة، وهى تجمع كراساتها بين يديها ثم

التفتت تجاه ناهد وقالت: تاخدى حلاوة يا مس.

ستى أم جابر جابت حلاوة كتير من المولد.

ربتت ناهد على شعر نور وقبلتها. شكراً يا حبيبتى.

جلست ناهد أمام هند، وهى مازالت تنظر من النافذة صامتة. كأن هذه النافذة هى العالم السحرى الذى تستمد منه قوتها، أو كأنها تنتظر غائباً يأتى. ضحكت ناهد وقالت مداعبة: نحن هنا يا أم نور.

التفتت هند من شرودها. ازيك يا ناهد. إيه الغيبة دى كلها.

ضحكت ناهد وقالت: أنا ولا انتى، من يوم جوازى من أبى الحجاج لم أركِ.

ضحكت هند. من لقى أحبابه نسى أصحابه. سبحان مغير الأحوال. القط والفار اصطلحوا.

مدت ناهد يديها، وأشعلت وابور السبرتو، ووضعت البراد الصغير وكوبين من الماء. ثم قالت وهى تحاول أن تظهر ما فى يديها: خدى كتاب لقيته فى مكتبة أبو الحجاج. قلت يمكن يعجبك.

– عن إيه؟

– عن الغجر.

أمسكت هند الكتاب وضحكت، ضحكة واسعة: عندى، وقريته.

نظرت ناهد غير مصدقة وقالت: وعارفه إن أم جابر منهم.

– لأ.. أخوها اجوز منهم.. اجوز برمكيه.

– ليه يا هند. مش خايفه. الحكاية تتكرر تانى.

أطفأت هند النار، وصبت كوبين الشاى ووضعتهما، أمامها هى وناهد.

– التاريخ يعيد نفسه يا ناهد حكاية هند وحمزة بقت حكاية على ونور.

– إيه يا بنت عمتى هو ورث.

– لأ قدر.. وجينات ورثوها.

صمتت ناهد ولم تعلق. لأن هند صدمتها. وربما تفعل نور ما فعلته أمها قديماً وتخذل أمها وتتزوج على. أخذت ناهد رشفة من الشاى.

– على ونور، هند وحمزة. والحكاية القديمة. نظرت هند نحوها، وعيناها تدمعان.

– والمفروض أفرق بينهم زى أمى ما عملت معايا. وفى النهاية طفلة بلا ذنب، بلا ميراث، بلا شهادة ميلاد.

أخذت ناهد تشرب الشاى فى صمت.

وهى تحاول أن تسترجع شذرات من التاريخ القديم، ولكن خانتها ذاكرتها، لأنها لا تعرف الحكاية جيداً.لأنها كانت خارج مصر بينما أخذت هند الكتاب، ثم فتحته، وأخذت تقرأ نفس المقاطع القديمة التى قرأتها من قبل، كأنها تعيد الزمن، وقراءة التاريخ مرة أخرى.

***

"كانوا يجلدون بقسوة أو يتم إدخال إبرة حديدية محمية طولها بوصة فى الأذن اليمنى حتى الغضروف الداخلى، تقرر أنه منذ الآن ومادامت لا توجد اتهامات جنائية ثابتة ضد الغجر.فإنه يتوجب جلد الأصحاء من الذكور القعدة عن العمل. والنساء فوق سن الخامسة والعشرين ووسمهم ونفيهم فى جماعات صغيرة متفرقة. على أن يعدموا إذا عادوا.

أما الفتيات والشباب ممن لا يصلحون للعمل الشاق فيتم ابعادهم.

ويجبر صحيحو الجسم على العمل القسرى طيلة حياتهم. ويتم انتزاع الأطفال دون العاشرة من آبائهم، ويسلمون إلى أناس طيبين ينشئونهم نشأة سليمة".

مدت ناهد يدها وأخذت الكتاب من هند وقالت لها: كفايه. دا كان فى الغرب. النهاردا الدنيا اتغيرت أنا خايفه عليكي من كتر القراية وخصوصا ابن الفارض والمتصوفة الل مالين الكتب.

قالت هند وهى تنظر من النافذة إلى الخارج كأنها تتنفس قوة ساحرة:

– الوسم فى الداخل، ولا يمحى بسهولة.

قامت ناهد تغسل الكوبين، وتأتى بماء جديد لعمل كوبين من الشاى.

قفزت هند من مكانها، وأخذت تنادى على ناهد وهى تطل بكل جسدها من النافذة:

– يا ناهد.. تعالى بسرعة.. قربى.

تركت ناهد ما بين يديها، وجاءت مسرعة تستطلع الأمر الخطير. رأت هند تنادى على رجلٍ بصوت مرتفع وهو لا يبالى بصوتها، ويجرى فى الشارع صائحاً:

– كل بلد فيها شيخ

واحنا بلدنا فيها السلطان

يا سلطان يا ابو العلا.

أخذت ناهد وهند ترفعان صوتهما، ولكنه لم يسأل عنهما، وواصل الجرى فى الشارع وهو يغنى:

– يا حامى كل البولاقيه

لو يوم حبيبى جه هنا

حنن قلبه عليا .

أخذت ناهد تضحك بصوت مرتفع، وهى لا تستطيع السيطرة على نفسها .

- ياه لسه عايش يا شيخ عليش. يا ترى إيه رجعك. من وانا صغيرة، وانا بسمع نفس الأغنية. وهو بيجرى فى الشوارع ويغنيها . والعيال يجروا وراه ويزفوه. يابو الريش إنشالله تعيش.

تدخل هند وتغلق النافذة.

لقد بعد صوت الشيخ كثيراً، ثم أشعلت النار، ووضعت البراد عليها .

- ياه يا ناهد .. زمن. ماتت ناس، وعاشت ناس.

وعليش لساه بينادى على رباب، ويدور عليها .

- الحب بهدلة يا بنت عمتى.

- أيوه يا ناهد الحب بهدلة. تخيلى لو حمزة كان عايش كان بقى عليش جديد .

- يا هند انسى. انسى عشان تعرفى تعيشى.

***

مات حمزة. وابتعد عنها للأبد.

بعد أن رفضت الأم الارتباط بينهما. أخذت هند تعد الذين عرفتهم فى حياتها ورحلوا، وتستعيد التاريخ المنصرم، وتفتح ملفات العشق وأيهم أولى بالمحبة. فكان حمزة يحتل دائماً المقدمة. فرقت الأم بينهما بجبروتها وقوتها وسطوتها، وطردته من البيت. كيف تتزوج ابنة الأصل منك يا غجرى.

حجة غير مقنعة. ولكن الأم تتمسك بها، ودبرت الحيلة مع أخيها سعد لطرده، وإجباره على ترك المكان بسهولة ويسر وفى صمت أيضاً، كانت تشعر الأم أن هذا الحريق إذا شب سيلتهم الدنيا، وإذا هدأ سوف تنقذ ابنتها، استراحت كثيراً من عبء الضمير بطرده. سنوات طويلة ظلت هند رافضة الارتباط بغيره، ووضعت همها وضعفها فى صفحات الكتب والتارخ والشعر والعلم، والصوفية فازدادت قوة بضعفها، وازدادت همة بصمتها. وعملت مكانه فى نفس المدرسة، ودخلت نفس الفصول.

– هل هذا يكفى وفاءً لك يا حمزة؟

في صبيحة يوم الجمعة ١١ مارس عام ١٨١١.

أخذت القاهرة زخرفها، وزينت بالأعلام والبيارق وخرج

الأهالي إلى الشوارع لتوديع الجيش المصري الذاهب إلى الحجاز لحرب الوهابيين، والذى سيأخذ طريقه من باب العزب المطل على ميدان الرميلة بالقلعة، إلى شارع الأزهر ثم ينحرف يمينا في شاعر المعز لدين الله حتى باب الفتوح.

ومنذ الصباح الباكر كان عزيز مصر محمد علي باشا يتصدر أريكة الحاكم في قصره بالقلعة ويستقبل الشيوخ والعلماء والقضاة والتجار والأعيان الذين توافدوا عليه للتهنئة والدعاء لقائد الحملة ابنة أحمد طوسون باشا.

ولفت الأنظار قدوم كبار الأمراء المماليك على خيولهم المطهمة وفى ثيابهم المزركشة للإعراب عند سعادتهم بالدعوة التى وجهها إليهم محمد علي لحضور الاحتفال.

وليكونوا ضمن الموكب الذى سيصاحب الحملة أثناء مرورها في شوارع القاهرة.

وكانت دعوتهم إلى احتفال القلعة إعلانا عن المصالحة وحقن الدماء وبدء صفحة جديدة تخلد فيها البلاد إلى الهدوء والاستقرار بعد ست سنوات من الاضطرابات والفتن.. والغدر من المماليك لأنهم كانوا قد فقدوا قدراتهم العسكرية منذ هزيمتهم أمام الفرنسيين، وتحولوا إلى عصابات للسلب والنهب.

واستقبل محمد علي أعداء الأمس بوجه بشوش، وكلمات معسولة، ويسأل عن أحوالهم، ويضفي عليهم من عطفه ما جعلهم يقابلون التحية بأحسن منها ويدعون له بدوام العز والإقبال.

وأعرب محمد علي عن رغبته في الصلح مع المماليك والسماح لهم بالعودة إلى القاهرة، ليعيشوا في سلام ووئام، وأكل المماليك الطعم.

وقبلوا العرض، وأخذوا يتوافدون على القاهرة بعد أن ألقوا

السلاح، وخلعوا رداء الحرب، وارتضوا العيش الرغيد، والحياة الناعمة في أحضان حريمهم وجواريهم.

وأصدر محمد علي إعلانا بالأمان العام، والصفح عن الأمراء المماليك.

ودبر الخطة مع أربعة من خلصائه.

حسن باشا: قائد الفرقة الألبانية.

الكتخدا محمد لاظوغلي: الممثل الشخصي لمحمد علي، وصاحب التمثال الشهير بميدان لاظوغلي.

صالح قوش: قائد فرقة الأرناؤود التى عهد إليها بتصفية المماليك.

إبراهيم آغا: الحارس.. المسؤول عن باب العزب والمكلف بغلقه في وجه المماليك.

فهو (سمسم) الذى تنغلق البوابة بمجرد سماعه كلمة السر، وكانت (رصاصة يلطقها صالح قوش في الهواء)!!

وقبل ابتداء الحفلة دخل البكوات المماليك على محمد علي باشا قاعة الاستقبال الكبرى فتلقاهم بالبشر والحفاوة، وقدمت لهم القهوة، وشكرهم الباشا على إجابتهم دعوته.. وتجاذب هو وضيوفه أطراف الحديث هنيهه ثم ما لبث أن أذن مؤذن الرحيل.

فقرعت الطبول، وصدحت الموسيقى..

ونهض المماليك وقوفا، وبادلوا الباشا عبارات التحية والاحترام، وساروا إلى مكانهم فى الموكب الفخم..

اجتازت الباب طليعة المواكب، ثم رئيس الشرطة.. ثم المحافظ ومن معه، ثم الوجاقية..

ولم يكد المماليك يجتازون باب العزب حتى أطلقت رصاصة

في الهواء من صالح قوش، وارتج الباب وأقفل من الخارج عن حين فجأة.. إقفالا محكما في وجه المماليك، ومن روائهم الجنود الأرناؤود.

فلما رأى هؤلاء الجنود الباب قد أقفل..

تحولوا عن الطريق في صمت وسكون، وتسلقوا الصخور يمينا وشمالا.

ولم يدرك المماليك أن الباب قد أقفل، واستمروا يتقدمون متجهين إليه..

ولم تمض هنيهة حتى دوى طلق الرصاص..

وانهال دفعة واحدة على المماليك وهم محصورون في الطريق الغائر في الأرض.

الباب مغلق أمامهم، والأرناؤود من ورائهم، عن اليمين، وعن الشمال، ومن جميع الجهات.. وسقطت الصفوف المكشوفة.. تتخبط في دمائها.. وتراجع البعض وخلعوا ما كان عليهم من الفرو والملابس الثمينة والثياب الفضفاضة ليسهل الفرار.

ولكن الرصاص حصدهم.

وحاول شاهين بك الألفي الهرب ولكن.. سقط سريعا واستطاع سليمان بك البواب أن يجتاز الطريق وجسده يقطر دما، ووصل إلى سراي الحريم.. واستغاث بالنساء (في عرض الحريم) وكانت تكفي كي يصبح في مأمن ولكن الجنود قطعوا رأسه. واتجه بعض المماليك إلى طوسون باشا حيث كان منتظرا أن تنتهي تلك المأساة فتراموا على قدميه طالبين الأمان، ولكنه وقف جامدا..

وقتلهم الجنود.

واستمر القتل إلى أن فنى كل من دخل القلعة من المماليك.. ومن لم يمت بالرصاص.. كان الجنود يسقونة إلى الكتخدا بك

ويقتله بالسيف.

واستمر القتل من ضحو النهار إلى هزيج الليل حتى امتلأ فناء القلعة بالجثث.

أربعمائة وسبعون من المماليك وأتباعهم قتلوا جميعا ولم ينج سوى (أمين بك) كان في مؤخرة الصفوف وقفز بحصانه من فوق القلعة.

وبعد انتهاء المذبحة وتضاءل صوت الرصاص..

كان محمد علي في القاعة .. ولم ينبس بكلمة..

ثم دخل عليه المسيو ماندريشي طبيبه الإيطالي وقال له: «لقد قضى الأمر واليوم يوم سعيد لسموكم»

صمت محمد علي وطلب قدحا من الماء فشربه في جرعة ط ويلة.

أغلقت هند الكتاب عندما..

جاء حامد النوبى. ابن العم البعيد، من سكان الزمالك، صاحب القصر المتين الذى يطل على النيل بشرفاته الواسعة يخطب هند. ابنة بولاق وجامع السلطان وسألته مرة بخجل: كيف تقيم بمفردك يا حامد؟

ضحك وقال: البيت تسكنه الملائكة.

أعيش بين صور لثلاث نساء جميلات، ملكات (أمى، وجدتى، وعمتى رباب).

ضحكت هند وغمزت له: عمتك عشيقة عليش.

ضحك حامد وصمت.

فقالت له: لنا يوم آخر يا حامد.

كيف أسكن مع الملائكة، وأنا الإنسية المحبطة.

ضحك حامد وهبدها على كتفها بغيظ.

– سأجعلك مثلهن. ملاك. شرط أن تتركى المدرسة والتاريخ والشعر.

ضحكت هند، وهى تنزل السلالم.

– أصبحت من الدراويش يا ابن العم.

– هات لي مبخرة، اجلس بها بجوار السلطان. وأقوم بتبخير المقام.

ـ كيف تكون علاقتنا إذن يا هند؟

قالت وهى تتوقف أمام الباب الكبير للقصر: نكون أبناء عم. أبناء عم.

نزل حامد يجرى وراءها: حبيبى اللى بحبه ولو كان عبد نوبى.

تزوجا. وقبل كل شروطها: لا تنازل عن العمل. لا حجاب. صار يعشقها مثلما عشق عليش رباب. مع الفارق.. رباب ساكنة القصور العالية، رفضوا زواجها من عليش. أما هند فقد تزوجت حامد سليم النوبى.. ابن عم النوبى الكبير.. عم العم.

وكانت حكاية. تحاكى بها كل البولاقية لسنوات طويلة. ثلاث ليال والموائد تقام، ثلاث ليال وتذبح الذبائح، ثلاث ليال والأنوار حول جامع السلطان ساطعة، ثلاث ليال وشارع ٢٦ يوليو من أوله إلى آخره ضيفاً عند حامد النوبى.

ورقصت أم هند من ٢٦ يوليو ببولاق إلى ٢٦ يوليو بالزمالك. وودعت ابنتها عند الباب، وقالت: والله واتنصفتى يا هند. لم تعلق هند وصمتت. ومرت الأيام كثيرة بعدها.

مات حامد النوبى فى دكانه.. أثناء أحداث الشغب فى أحداث يناير ٧٧. حرقه عليش المجذوب ظناً منه أنه خطف رباب عشيقته. حزنت هند وجن جنونها، أوقفته فى الشارع وسألته: لماذا حرقت النوبى يا عليش؟

ادعى الجنون، وخلط بين الأب والابن، وبين هند ورباب، ولكنه بعد خطوات قال:

– كيف أحرق رباب يا هند؟.

في ليلة مقمرة، ليلة الرابع عشر من شهر ربيع الثاني، الليلة الكبيرة لمولد الشيخ «أبو العلا». جلس الشيخ عليش على شاطئ النيل، بالقرب من القصر، أسفل النافذة التي كانت تطل منها رباب، وأخذ يبكي، ويضرب فخذيه بعصاه وهو ينشد أشعار الحب والهوى ويتجلى صوته صادحا في الفضاء: أنت الحبيب الذي لا شك في خلد .. منه، فإن فقدتك النفس لم تعش.

وأخذ يضرب نفسه بقوة وعنف إلى أن بان عظم فخذه وساقه وتبدد لحمه وهو ما زال ينشد أشعار «سمنون» المحب التي حفظهما عن شيخه: أنا راض بطول صدك عني.. ليس إلى أن ذاك هواكا.

فامتحن بالجفا صبري على .. الود ودعني معلقا برجاكا.

فرمقته أم جابر من الشاطئ الآخر بالقرب من بيتها في بولاق، وهي جالسة على حافة الماء، تدعك المواعين، فأخذت تصيح وتنادي: يا عليش، يا وله، وهو زاهدا في وجده، لا يسمع صوتها ولا يجيب. رمت ما في يدها، وأخذت تجري عابرة الكوبري في سرعة، وهي تقوم وتقع، وتقوم، إلى أن وصلت إليه، وأخذته في حضنها وهي تبكي: يا روح خالتك.

ثم نقلته إلى مستشفى الهلال، وجلست جواره لأيام طويلة، إلى أن توفيت رباب، وجن جنونه، وخرج من المستشفى تائها، لا أحد يعرف مكانا له، وظل ينشد أشعاره ويشكو حبه وهو تائها في الطرقات والأزقة..

يا معطش بوصال أنت واهبه .. هل فيك لي راحة إنصحت: واعطشي.

وظلت أم جابر لسنوات طويلة تبحث عنه وتحاول أن تعيده.. ولكنه كان يختفي من أمام عينيها ولا يظهر إلا ليلة مولد «أبي العلاء» الليلة الكبيرة، ويظل يطوف في الشوارع مناديا بعلو صوته:

كل بلد فيها شيخ
واحنا بلدنا فيها السطان.
يا سلطان يا أبوا العلا
يا حامي كل البولاقية
لو يوم حبيبي جه هنا
حنن قلبه عليا.

ويظل يلف ويدور، إلى أن تتعب قدماه فيعود إلى القصر وأسفل شباك رباب يجلس باكيا، يتذكر الليلة التي رأى فيها رباب لأول مرة وهي تمديدها وتعطيه رغيف العيش المليء باللحم والأرز وتقول له: أتفضل يا شيخ. وتمتلئ عينيه بالدموع وهو يرى صورتها تتجسد أمامه وهي تطل من النافذة عليه، تسمع صوته وأشعاره وهو يبث لها حبه، ويشكو هواه لها، وهي تضحك، وتشعل عود البخور وتدور به في الحجرة، ثم فجأة تدخل الحبشية، تغلق النافذة، وتخرج من رأسها إبرة على شكل دبوس صغير ثم تلقي ببعض التعاويذ فيتحول إلى طائر جميل يصيح صوته في الحجرة، وعندما تراه رباب تظل تبكي وتبكي إلى أن تقع منهارة على الأرض، فتقوم الحبشية بسحرها وتحويلها إلى طائر صغير يلف ويدور في الحجرة ويغني مع طائره، وتتركهما الحبشية، وتخرج من الحجرة في صمت.

أحرقت رباب نفسها عشية موت أبيها جعفر النوبى الكبير. سكبت الجاز على نفسها، وخرجت معه فى جنازة واحدة. تحاكى بها الناس طويلا. كانت جنازة مهيبة. تقدم الجنازة وفد من

القصر. ومن يومها والملائكة تساقطوا ملاك وراء الآخر. الأخ حزنا على رباب والأب. والأم حزنا على الابن والزوج والابنة. وظل حامد الصغير فى حجر أمه، تربيه إلى أن كانت آخر الملائكة المرفرفين. وظل حامد وحيداً زمناً طويلاً.. يحب هند، ويعلم أنها تحب حمزة.

رفضت هند العودة إلى بيت أبيها بعد موت حامد، قالت: لن أعود، وأترك بيت الملائكة. حتى لا تملأنى رائحة حمزة من جديد. وكانت كل ليلة تفعل ما كان يفعله حامد، تمسك المبخرة تبخر الحجرات، وتملأ البيت برائحة المسك والعنبر، وكلما شمت الرائحة، وقفت قليلا أمام الصور تقرأ الفاتحة.

كان لحامد عطره الخاص الذى يصنعه بيديه فى دكانه الصغير بجوار سينما على بابا. وكانت هند كل يوم تخرج الزجاجة تشمها وتغلقها، تملأ رئتيها جيداً، ثم تنام حزينة.

وفى يوم من الأيام.. وبعد سنوات طويلة من وفاة حامد كانت تمر بالصدفة على كوبرى أبى العلاء عائدة إلى بيتها.

رأته واقفاً، شابا وسيماً، يشبه حمزة بدرجة كبيرة، لدرجة أوشكت أن تناديه: حمزة. ترددت كثيراً ثم وقفت أمامه لحظات تتأمله ونادته: حمزة. ضحك ونظر نحوها.

– نعم.

– أسفه.

ثم انصرفت، غير مصدقة عينيها. ووقف هو، وظل يواصل نظراته إلى النيل.

ضحكت غير مصدقة: خيالات. ثم عادت إلى البيت تنظر إلى الملائكة، وتشعل البخور، وتقرأ الفاتحة. ثم أخذت تنظر من الشرفة إلى النيل والشارع والسلطان ومئذنته العالية، والكوبرى، وهو مازال يقف مكانه، يلقى بسنارته فى الماء وينتظر.

ثم فتحت الكتاب وأخذت تقرأ في صمت.

إذا ذهبت يوما إلى قلعة صلاح الدين لتتعرف ما تشتمل عليه من المواقع والمباني والآثار.
فقف قليلا (دقيقة حداد). تحت منارة جامع السلطان حسن واتجه بنظرك إلى القعلة..
تجدها ماثلة أمامك. بموقعها المنيع. وأسوارها العالية. وأبراجها الشاهقة. وأبوابها الضخمة. وأول ما يلفت نظرك قباب جامع محمد علي ومآذنه الهيفاء البديعة الصنع التى تداعب السحاب في علوها. فإذا رجعت الطرف في هذا المنظر فدعه جانبا. لأنه لم يكن موجودا بتمامه في العصر الذى نكتب عنه إذ لم يكن محمد علي باشا قد بنى جامعه إلى هذه سنة ١٨١١ وانظر أمامك. تجد بابا ضخما غائرا في الجبل تعلوه أبراج قديمة.هذا الباب هو المسمي (باب العزب) وهو باب القلعة من الجهة الغربية. ويقع على الميدان المسمي الآن بميدان (صلاح الدين) وكان يسمى في ذلك العهد ميدان الرميلة. فإذا دخلت من هذا الباب (أقرأ الفاتحة) لأنك تجد طريقا وعرا متعرجا. متوحشا في الصخر. تسير فيه بالجهد والعناء صاعد إلى رحبة القلعة. وتصل منه إلى جامع محمد علي. ثم إلى القصر. فإذا تعرفت تلك المواقع. وثبتت صورتها في ذهنك فاسمع ما جرى فيها... إنها مذبحة المماليك..

وضعت هند الكتاب على سور الشباك وأخذت تبكي، ورأسها تدور بالأفكار والحكايات والمواضيع. ورأت طيف حمزة يقترب منها.. آتيا من الفراغ، يخترق السحب والهواء والأضواء، ويحتويها بين ذراعيه، فتشعر بجسده ساخنا، دافئا، مثل ذلك اليوم الذى أخذته على صدرها وهو غارقا في دمائه وهى تصرخ وتبكي: حمزة أنا حامل.. سامعني أنا حامل...

***

بضعة خطوات هى التى تفصلك عنه يا هند. اعتاد كل ليلة فى نفس الموعد أن يقف على الكوبرى، يتطلع إلى الماء لساعات طويلة، كأنه يوجد حديث شيق بينهما، لا يمل النظر أو الانتظار. السنارة غاطسة بالكامل. وهو جالس على كرسيه الصغير يراقب وينتظر. وهند تطل عليه من شرفتها من الموقع الأثير لديها.

تجلس على الكنبة الإسطمبولى التى ورثتها عن أمها. الشىء الوحيد الذى تمسكت به وأخذته معها، فهى تسميها كنبة الذكريات. جلس عليها أبوها. وجلس عليها حمزة كثيراً عندما كان يشرح لها الدروس هى وإخوتها.

أصرت بعد وفاة أمها أن تأخذها وتضعها أسفل النافذة، تجلس عليها طويلاً تتطلع إلى العالم من خلال هذه النافذة:

"الدنيا جسر يعبر عليه الإنسان إلى أخراه - إلى المقام الأبدي والدار الباقية - والعاقل من استغل وجوده بها ووقف حياته على التزام الطاعات، ومواصلة العبادة والإخلاص فى الذكر حتى تفنى بشريته، وتتصل نفسه بحضرة الله وتنعم فى رحابها بما لم ينعم به إنسان، وتستمد من معينها شتى الهبات التى لا يظفر بها إنس ولا جان، فلابد من، تقبيح الدنيا، وإلغاء الملكية، واحترام

البطالة. والتسول لكسر النفس واحتقار ما تنطوي عليه الحياة من لذات وإغراء للناس. وتكلف الحزن واصطناع الضيق والسعي إلى موطن الذل والاغتباط بالهوان والاطمئنان للمستقبل الغامض والقناعة بالتافه من شئون العيش والاستهانة. أغلقت الكتاب وأخذت هند تهبد رأسها في خشب النافذة: وهي تبكي يا ألهي لماذا صنعتني هكذا.
والدموع تنهمر منها في شلال متواصل.
بالمادة والاستهتار بالمال والاكتفاء برحمة السماء. الله وحده مالك الدنيا والآخرة وصاحب السموات والأرضيين هو الباقي وسائر العباد قد وجدوا في الدنيا ليتأهبوا للأخرى ويستعدوا لاستقبال أهوالها.

اعتاد شبيه حمزة، الذي لا تعرف اسمه إلى الآن، أن يظل طوال ساعات الليل جالساً يصطاد السمك. ربما تكون حجة لإضاعة الوقت! وربما لا يكون لديه أحد ينتظره!

أصرت هند بينها وبين نفسها أن تسميه (حمزة الأسير) فهو أسير مكانه، وأسير الصيد. وكم من ساعات تلونت فى عينيها السعادة، وكم من أيام تهيأت لكى ترتدى ملابسها الأنيقة وتنزل إلى جواره تصيده بشباكها، أو بسنارة قلبها الملهوف على معرفة حكايته. كان لديها إسطبل صغير يبعد عن القصر بضعة مترات، فى آخر ممر للحديقة، أصبح جراجاً للعربات التى ورثتها، وتركتها مكانها، ورفضت بيعها. قالت: ما فائدة الفلوس، وأنا لا أحتاج إليها. وظلت العربات مكانها يعلوها الصدأ والقدم والأيام.

وفى يوم صحت مبكراً على غير عادتها، وطلبت ناهد فى التليفون. فجاءت لها مسرعة. وحدثتها هند فى أمر تنظيف الإسطبل، وبيع العربات. وهنا أدركت ناهد أنه سوف تحدث أوهام، وربما فكرة مجنونة طرأت على خاطر هند. وسألتها: أخيراً هاتبيعى العربيات، يا بنت خالي بعد ما عدتش تجيب تمنها.

دون أن تنظر هند إليها، ومازالت عيناها على الطريق والكوبرى وصائد السمك. عايزه الإسطبل نضيف. يومان كاملان، وجابر وأمه وسمرة وعلى ينظفون الإسطبل.

وعاد إلى صورته الأولى نظيفاً جميلاً: وعندما نظرت إليه ناهد صرخت مهللة: الله دا بقى جنه. وقفت هند تتأمل الجمال والهواء الجديد الذى دخل المكان وملأه. وقالت: سوف أشترى فرسة جميلة وأسميها «رباب». هبدتها ناهد على كتفها مازحة.

– وبالمرة اشترى حصان وسميه حمزه.

استغربت هند من الجملة ولكنها لم تعلق، وصمتت وأخذت ناهد من يدها وخرجتا إلى الحديقة. لسانك عايز قطعه يا بنت عمتي.

تخلصت ناهد من قبضة هند وابتعدت عنها: أكمنى بقول الحقيقه.

جذبتها هند من يدها ثانية ودخلتا البيت: لأ. عايز قطعه عشان طويل.

بعد أيام طويلة من البرد القارص، الذى لم يتعود عليه أحد، عاد الدفء من جديد. بدأت الشمس تشق السحاب الكثيف بضوئها، وهى تسير بخطوات خجلة شاقة لهذا الضباب. ورغم ذلك تفاءلت هند كثيراً. فهى لا تحب البرد، وتصبح عكرة المزاج، وتصاب باكتئاب شديد. ولكنها فتحت النافذة، ونظرت إلى ضوء الشمس الذى مازال باهتاً، ويحاول الخروج، ويبعث الدفء إلى قلبها. نظرت هند إلى السماء وضحكت فرحة. محدثة الشمس (أيوا كدا اطلعى بقى يا جميلة.) ثم فركت كفيها بود وشقاوة، وأشعلت النار وجلست أمامها تصنع كوباً من الشاى. نظرت حولها لم تجد شيئاً يشغل تفكيرها قليلاً. قامت من مكانها، ورتبت بعض الوسائد، وأتت بالمكنسة ونظفت الأرض. ولأول مرة لم تنتظر أم جابر أو عودة ناهد من

المدرسة، وقررت أن تكنس السلم بنفسها. منذ زمن لم تفعل هذا.
منذ أن أمرها الطبيب بالابتعاد عن الأتربة والروائح وهى تتجنب ذلك كثيراً. ولكنها لم تتنازل عن حب الروائح الجميلة والتى كانت تقدمها لها ناهد فى المناسبات كهدايا. وعندما أنهت ذلك. عادت تجلس باسترخاء أمام النار على الكنبة، وتصب الشاى. ثم ضحكت بصوت مرتفع وقالت متنهدة:
(أما زلتِ فى انتظار جودو يا هند؟!) فى انتظار شىء يحدث.

"مطالب الحياة ورغبات النفس وشهوات الجسم كلها أشياء حقيرة. إن الشحاتين الذين يطوفون بالأبواب يحملون عن المحسنين ذنوبهم.
فإن هدية الله للمؤمن وقوف السائل على بابه. الإنسان الذي يعرف مكانته وصلته هو الذي لا يبيت على دينار أبدا، وحسبه التوكل على الله. وما أخيب التاجر الذي يصرف وقته فى تجارته، والزارع الذي ينفق جهده في زراعته، والصانع الذي يبذل نشاطه فى صناعته، وما أفشل من سافر منهم طلبا لكسب أو رغبة فى مال فإن الرزق فى طلب صاحبه دائر. والمرزوق فى طلب رزقه حائر. وبسكون أحدهما بتحرك الإخر، فالله يرزق عباده من حيث لا يحتسبون. إن العبد ليدخل الخلوة جاهلا فقيرا ضعيفا، ويخرج منها عالما واسع العلم.
ثريا طائل الثراء، قويا موفور القوة..!! ماذا يريد الإنسان من الدنيا؟ اللقمة التى تسد الرمق، والرقعة التى تستر العورة.

واعتادت هند قراءة كتب الصوفية الآخرين خلاف ابن الفارض وغيره وكانت تسميهم الزاهدين. ومهما حاولت ناهد إخفاء هذه الكتب تعود هند لقراءتها من جديد وتتمعن في الكلمات وتحاول تقليدهم.

***

وأصبح كل ليلة يمر الشيخ عليش من أمام الباب يتطلع إلى النافذة المغلقة ويكمل أغنيته التى لا تنتهى ولا تتغير.

وفضلت ألف وألف وألف
وتعبت يا ناس من كتر اللف
هاقول إيه على أوصافه
بيلبس موضه وملايه لف.

تتأسى هند لصوته الحزين وتناديه: يا شيخ عليش.

يجرى مهرولاً، تاركاً ساقيه للريح. اسعى.. اسعى.

تحاول هند استنطاق الملائكة، للبحث عن الحقيقة. كيف جن عليش؟ ولماذا ماتت رباب؟ أسئلة كثيرة تؤرقها. والملائكة لا تبوح بالأسرار. وحجرة رباب لا تفتح. ولا يقترب منها أحد، سوى أم جابر. هى التى تقوم بتنظيفها يوم الجمعة من كل أسبوع، وتبخرها ثم تغلقها. حاولت هند مراراً التحدث معها. ولكن الصمت المطبق على السر المكنون. السر تحفظه أم جابر داخل صدرها.

سنوات وهى تدخل البيت وقتما تشاء، دون أن تتذكر هند متى حدث هذا. قبل زواجها من حامد، أم بعده. السنون أصبحت بعيدة. فتحت هند كتاب الغجر وجلست تقرأ ما فوق الخطوط الموضوعة بالقلم، **(عندما فر الغجر إلى المدن بسبب طرد الفلاحين لهم وعدم إيوائهم. كانوا يثيرون الرعب فى نفوس الناس لذا تقرر ضرب النار عليهم. أما الصبية والنساء من لم يسبق إدانتهم بالسرقة فإنهم يجلدون ويوسمون ويوضعون فى الإصلاحيات مدى الحياة).**

هكذا رأت رباب عليش لأول مرة. فى مولد أبى العلاء. كانت مرتدية ملابسها الأنيقة، والعطر الخاص الذى يصنعه لها

والدها . وتلفحت بملاءة لف وخرجت بصحبة الحبشية للمولد .
كى ترى زفة الولى وتشاهد الدوسة وألعاب الحواة.

وتوزع أرغفة اللحم بالأرز، نذر أمها للسلطان. وما إن رآها عليش وهى تقدم له الرغيف ونظرت له بعينيها: خد يا شيخ، حتى طاش عقله، وجن جنونه، من جمالها ورقتها، وهام بها حباً . كان يتسلق سور القصر ليلا، ويقف أسفل شرفتها يناجيها ويسمعها أشعار الغزل.

"لو كان لي مسعد بالراح يسعدني ..
لما انتظرت لشرب الراح أنكارا
الراح شيء شريف أنت شاربه ..
فأشرب ولو حملتك الراح أوزارا
يا من يلوم على الصهباء صافية ..
خذ الجنان ودعني أسكن النارا

ومن يومها . يوم رآته الحبشية واقفا، ونظرت له بعينيها الحمراوين وكادت أن تسحره. وقرأ المعوذتين وآية الكرسى وأطلق ساقيه للريح . لم يرها ثانية . وإنما كان يرى أم جابر تأتى إليه ويسألها عنها .

– قوليلى يا أم جابر . إيه أخبار الست.

تضحك أم جابر، وتلف ملاءتها حول وسطها بإحكام .

– ست. أنهى ست؟

– الست رباب.

– يا راجل اتلهى. وانتبه للزباين أحسن. وكتر البخور . وحياة السلطان. واتوصى. لحسن دا للست رباب.

يرفض عليش أخذ النقود من أم جابر ويعطيها قرطاسا كبيراً

من البخور.

- والنبى السلام أمانه يا خاله.

تتهادى أم جابر فى مشيتها وتتدلل وهى تسحب جابر فى يدها.

- ربنا يقدم اللى فيه الخير يا سيدنا.

ثم تأخذ فص لبان الدكر تضعه فى فمها وتحبك الملاءة حول جسدها وتسير طوال الطريق تغنى. قاطعة كوبرى أبى العلا فى طرفة عين.

العتبة جزاز والسلم نيلو فى نيلو.
ماشين على كوبرى أبو العلا   الله الله
شالله يا سيدى أبو العلا   الله الله
يا ريت حبيبى ييجى هنا
والسلم نيلو فى نيلو.

تصعد السلالم فى دلال وهى مازالت تغنى وتتدلل وتمضغ اللبان وتنادى.

- يا ست رباب.. يا ست. يوه قطيعه الحب وسنينه.

تضع البخور على المنضدة أمام رباب. ثم تأخذ الفلفل والكمون وتدخل المطبخ. وتخرج ثانية وهى مازالت تمضغ اللبان وتغنى.

- والعتبة جزاز والسلم نيلو فى نيلو.

تهبدها رباب على ظهرها. انتِ يا وليه بطلى المياصه دى.

- والنبى يا ستى بيحبك.

- مين يا أم قويق.

- الشيخ عليش. شيخ العطارين فيكى يا بولاق.

- طظ.

تجلس رباب تفتح البخور، ثم تقربه من أنفها، وتشم بعمق.

- الله.. بخور حلو بشكل.

تنتهز أم جابر الفرصة، وتخرج الفلوس من صدرها.

- هدية الحبيب لحبيبه.

ثم تمد يدها بالفلوس وقرطاس اللبان الدكر وزجاجة أخرى.

- والنبى فضلت أحلف عليه. وهو ما رضى أبدا. وقال عيب.. دا هديه.. والنبى قبل الهديه.

والإزازه دى اشربى منها حبه ورشى الباقى على العتبه، تمنع عنك الشيطان.

نهرت رباب أم جابر ورمت الفلوس، وقامت من جوارها، ثم نادتها.

- انت يا أم قويق. هاتى المبخره.

تدخل أم جابر فى خشوع وأدب حاملة المبخرة فى يدها والنار تطقطق. تضع رباب البخور فتملأ المكان رائحة جميلة. تأمرها أن تطفئ النور. وتغلق الباب خلفها، ثم تتمدد رباب على سريرها ثم تذهب فى نوم عميق كأنها مسحوره.

تدخل الحبشية على أطراف أصابعها. تملس بيديها على شعر رباب وتأخذ فى قراءة بعض الأدعية. ثم تخرج دبوساً صغيراً من شعرها، وتضعه إلى جوارها، بعد لحظات يتحول الدبوس إلى طائر جميلاً يحوم حولها وهى تسأله بصوت خشن.

- مين أحلى أنا ولا رباب بتحب مين أكتر أنا ولا هى؟

يرفرف الطير بجناحيه ويحوم حول النائمة، ثم يقف على شباك السرير صامتاً.

تتركه الحبشية واقفاً وتخرج.

تسمع رباب صوت الطائر يبكي ويشدو نائحا..

"أما ترثي لمكتئب..

إذا ضحك الخلى بكى

وأنت جمعت فى قلبي..

هوى قد كان مشتركا

صغير هواك عذبني..

فكيف به إذ احتكما

تنوح مثله وتبكي، ثم تتحول إلى طائرا جميلا مثله يرفان في الحجرة طوال الليل حول بعضها وهما يغنيان ويبكيان.

★★★

(بينما تمتلك الطيور فى السماء أعشاشها، والثعالب مأويها، والذئاب أوكارها، والسباع والدببة عرائنها، وكل الحيوانات أوطانها، فإن الجنس المصرى المعذب الذي يطلق عليه تعبير غجر، أجدر بالشفقة، ومع أنه ليس معروفاً إن كانت هذه الحالة سببها فرعون قاسى أو أنها من تصاريف القدر، فوفقا لما اعتادوا عليه، عاش الغجر حياة صعبة فى الآجام والمروج خارج المدن، تظللهم خيام بالية، وبذا تعلم كبارهم وصغارهم وهم يلتحفون السماء أن يحتملوا المطر والبرد والحر فليس لديهم ما يملكون كما أنه ليست لديهم مدن ولا حصون ولا ملاذات آمنة، لكنهم يتنقلون باستمرار وعلى مدى الأيام يلتمسون طعامهم وكساءهم بأعمال يزاولونها مستعينين بالسنادين والأكيار والمطارق والكلابات).

ما إن خرجت أم جابر من حجرة رباب بعد تنظيفها، وإشعال البخور، ورش ماء الورد، وغلقها ثانية حتى جلست أمام هند على الأرض وهى تنتظر كوب الشاى الساخن.

ضحكت هند وأغلقت الكتاب الذى فى يدها وقالت: ليه يا

وليه ياخرفانه. ماحكتيش حكاية عليش.

ضكت أم جابر، ومدت يدها تهرش ظهرها. يوه يا ست هند. دا زمن وفات. لسه فاكره؟

- يا وليه يا مرضعة إبليس. أنا بخبى عليكى حاجه.

ضحكت أم جابر، وخلعت الإيشارب، وهرشت فى رأسها. يا ست. اذكروا محاسن موتاكم.

هبدتها هند على رأسها، وشدت الإيشارب ورمته على الأرض.

- يا وليه وهو ده سر. ما كل بولاق عارفه. وانا صغيره ياما شفت الشيخ عليش وهو بيغنى والعيال بيزفوه فى الشارع.

ويقول: حبيبى اللى بحبه ولو كان عبد نوبى. كان قصده إيه يا وليه

تأخذ أم جابر الإيشارب من على الأرض وتنظفه، ثم تضعه على رأسها: أصل الست رباب جدها الكبير بيقولوا كان عبد عند الخديوى. وإن الست رباب مش بنته دى بنت باشوات.. لكنها أستغفر الله العظيم. كانت زى القمر.. والحبشيه كانت من الجان وكانت بتحرسها. أصلها كانت ممسوسه من الأسياد. اللهم احفظنا. وبيقولوا اللى عليها كان اسمها «الست الكبيرة». وكان كل يوم تلات تروح الست رباب دقة أبو السعود. وتفضل تذكر وتلف وتدور لحد ما تهمد ويجبوها يا حبة عينى خالصه مخلصه تقعد يومين نايمه ماحدش يشوفها والعبده تفضل قاعده على الباب حرساها.

صبت هند كوبين من الشاى وقالت: والنبى يا أم جابر نفسى أشوف أوضتها.

أمسكت أم جابر الكوب وهى خائفة: دى أمانه يا ست. عايزانى

أخون الأمانه.

أخذت هند كوب الشاى من يدها ونهرتها : يا وليه.

أنا هابص بصه من الباب، وارجع تانى. وبعدين ممكن أفتح الباب من وراكى. وممكن أكسره.

طفرت دمعة من عينى أم جابر ومسحتها بظهر يدها : ممكن يا ست. تفتحى الأوضه وتشوفيها. ممكن. لكن أخون الأمانه.. لأ.

غصب عنى.. مش حكمى.. دا حكم الست الكبيره أنا شفتها والشيخ المغربى بيطردها من البيت وبياخد عليها العهد.. أنها تخرج من البيت. بشرط محدش يدخل أوضة رباب غير أم جابر كل يوم ساعة آدان الجمعه آرشها وأنضفها وآبخرها وآقفلها تانى بسرعه من غير ما بص ورايا.. أفضل ارجع بضهرى لحد الباب. وافضل أأقول السلام عليكم يا أهل السلام. لحد ما اقفل الباب.

ثارت ثائرة هند وغضبت: يا وليه. يا خرفانه.

حجرة الأموات دى مقفولة من أيام الملك فاروق. والبيت الزفت ده، هايقع على دماغنا أنا وانت وتقولى أمانة.

أمسكت أم جابر كوب الشاى، وسارت مبتعدة به عن يد هند، وجلست بعيداً.

- شوفى يا ست هند. البيت ينهد. تفتحى الأوضه ويلبسك عفريت. انت حره.

لكن أخون العهد مع الأسياد.

لأ.

غضبت هند من أم جابر وولت وجهها الناحية الأخرى وأخذت تقرأ في الكتاب الذي معها.

«لأن مذبحة القلعة أدخلت الرعب فى قلوب الناس، واستولت الرهبة على القلوب، فلم يعد ممكنا ـ إلى زمن طويل ـ أن تعود الشجاعة والطمأنينة إلى نفوس الناس، والشجاعة خلق عظيم تحرص عليه الأمم الطامحة إلى العلا، وهى قوم الأخلاق، والفضائل.. فهذه الحادثة قضت على روح المعارضة أو المحاسبة أو الانتقاد.

★★★

ما إن مطت أم جابر شفتيها للإمام، وصنعت صوتاً بفمها على هيئة (ضرطة) طويلة وقالت: كله فى النهاية هايبقى إيه (جيص).

حتى ملأ الرزاز وجه هند، قامت تجرى وراءها داخل البيت وهى تناديها.

– خدى هنا يا وليه يا خرفانه.

انت يا مرضعة إبليس، يا حليفة الشيطان. بقى كل اللى بعمله للناس فى النهايه هايطلع على مافيش. طب لما تطولك إيدى يا أم الهم.

تعبت هند من الجرى وراء أم جابر. وأغلقت الباب عليها.

هى بالداخل وهند بالخارج يتحدثان.

أم جابر: الأمان وانا اقول يا ست.

هند: لا أمان، ولا كلام. اخرجى تعالى.

أم جابر: وحياة المصطفى يا ست ما كان قصدى. آنا عايزه أقولك مهما تعملى وتخدمى الناس وتديهم فلوس وتجرى ورا مصالحهم، وتعلمى عيالهم.. مش أهم من بنتك حبيبتك.

وقال يا بانى فى غير ملكك، يا مربى فى غير ولدك.

هند : يا أم قويق. انتِ عارفه مقدرش أقول لنور إنى أمها . البت مش هاتسامحنى.

أم جابر: يا ست البت قلبها حاسس. بس مش فاهمه. وبعدين دى كلها سى حمزه، شعره ولونه وعينيه.

هند : يا خرفانه . حمزه مات . تبقى أزاى تعرف يا أم الشوم.

أم جابر: خلاص. تاهت ولقيناها . اتبنيها . أو اجوزى.

هند : اخرسى يا أم أربعه واربعين. واطلعى لى برى.

أم جابر: يا ست. الراجل عبد شهواته . الست الناصحه لا تعدم الحيله.

قامت هند من مكانها . من أمام الباب. مبتعدة. وما إن فتحت أم جابر الباب وهى تتصنع صوت الواعظة الحنون. حتى جاءت هند، وأخذتها من يدها وأجلستها جوارها في هدوء.

هند: بقى الراجل عبد لشهواته.والست الناصحه لا تعدم الحيله.

طولة لساك دى أنا هاقطعها .

جرت أم جابر ودخلت الحمام باكية، ثم أغلقت الباب عليها . من الخارج صرخت هند : اطلعى يا وليه. خلاص مش زعلانه. البُكا فى الحمام حرام، ساعة صلاة الجمعه.

اطلعى ادتيك الأمان. اغسلى البراد، وتعالى نعمل كوبيتين شاى.

انصرفت هند من أمام الباب. وجلست جوار النافذة تنظر إلى الشارع.

فتحت أم جابر الباب، وهى تتسحب على أطراف أصابعها، وأخذت البراد فى سرعة وخرجت إلى المطبخ غسلته، ثم ملأت كوبين من الماء، ووضعتهما على النار. وجلست أمام هند تدفئ

يديها، وهى تمسح دموعها.

- ماهو يا ست هند ربنا عرفوه بالعقل.

وانا تعبت من كتم السر. وانتِ كبرتى. ومين هايرعاكى غير حبيبتك. وبعدين فكرك الناس مصدقه إنها بنت جابر وسمره. هاتيلى عقل على عقلى. وقوليلى ازاى. بنت زى القمر. وواد اسود وشعره أكرت.

دون أن تنظر هند إلى أم جابر تنهدت: الغجر حريمهم حلوه. وانتِ عارفه.

- مش كلهم يا ست.. الغوازى منهم بس، البرامكه انا عرفاهم وعاشرتهم.. نوع منهم مش كله. آخذت أم جابر البراد من على النار وصبت كوبين من الشاى.

- الخالق الناطق حمزه. أصل أمه كانت حلوه.. لأنها كانت منهم. انتِ ناسيه يا بنتى، أنا السبب الله يقطعنى. أنا اللى جبته وسكنته عندكم.. لما لقيته شاب وملو هدومه.. شفته فى مولد السيد البدوي كان لسه طالب.. عرفته قلت له يا عين عمتك ما تيجى مصر.. وسيبك من الغجر وسلوهم، وانتَ متعلم وبكره تبقى عال.

التفتت هند ناحيتها بقسوة.

- يا أم الزفت. عشان تكمل الفضيحه روحى قوليلها.

قوليلها أمك جبتك فى الـ.......

- يا ست دا كان جواز.

هما الغجر كدا يجيبوا رغيف ويقسموه ويحطوا شوية ملح وكل واحد لازم ياكل نصيبه.

أخذت هند كوب الشاى ورمته من الشباك: قومى يا أم الهم. جواز إيه.. دا نصب.

أخذت أم جابر كوب الشاى فى يدها وهى تصدر صوتاً عالياً..
وتصنع نفس الضرطة التى صنعتها بفمها وبشكل أطول وأعلى
(كله جيص — كله جيص) صرخت هند فيها. اشربى الشاى عدل
يا وليه.

– حاضر.

– حتى الشاى مش عارفه تشربيه.

أخذت أم جابر تصنع نفس الصوت، ثم توجهت نحو الباب
تفتحه. بعد أن سمعت طرقاً خفيفاً عليه. دخلت ناهد وهى
ترتعش من البرد. ثم أخذت كوب الشاى من يد أم جابر. وهى
ترشف منه.

جلست أمام هند تشرب فى هدوء.

مرت لحظات طويلة دون أن تتحدث أى واحدة منهن. تعجبت
ناهد كثيراً ثم قالت: – إيه مالكم؟

جلست أم جابر على الأرض، ثم وضعت يدها على خدها
وصمتت. وهند مازالت تواصل نظراتها عبر النافذة. أنهت ناهد
شرب الشاى ووضعت الكوب على المنضدة ثم قالت: قومى يا أم
جابر. اغسلى البراد. كى أصنع شايا جميلاً لهند.

قامت أم جابر، وأمسكت البراد والكوبين وقالت: انصحيها يا
ست ناهد. دى مهما كانت بنت خالك. والدم ليه حق.

اتجهت هند غاضبة بكل قوتها نحو أم جابر: دم لما يلهفك. يا
خرفانه. يا أم الهم. غورى.

كانت ناهد بعشرتها الطويلة لهند تعرف جيداً متى تخرجها
من حالتها. وماذا تقول. مدت يدها وأخذت يد هند بين يديها
وأخذت تدلك أطراف أصابعها بحنو وحب وهدوء: ولا يهمك يا
جميل.

انتِ هاتخدى على كلام الوليه الخرفانه دى؟ دى عداها قطر الموت. وعزرائيل ناسيها.

ابتسمت هند، ثم أخذت يد ناهد وربتت عليها.

– أهو كدا. النبى تبسم. إيه مزعل الجميل؟

– الحدوته إياها. زن أم جابر على دماغى.

أمسكت ناهد يد هند وقبلتها. يا بنت خالي ابن الحدوته بيكبر بسرعه. ونور كبرت، ولازم تعرف. وهى اللى تختار.

ثارت ثائرة هند ثانية. واحمر وجهها وعيناها: حتى أنتِ يا ناهد.

– يا حبيبتى يا بخت من بكانى وبكى عليا.

جاءت أم جابر بالبراد والكوبين وهى تضحك لأنها سمعت حوارهما كاملاً.

– قولى لها يا ست ناهد. أنا غلطانه؟

هزت ناهد رأسها نفيا. وهى تشعل النار، وتضع البراد عليه.

ناهد: ألا فاكره يا وليه نهار فرح هند على حامد النوبى.

تربعت أم جابر على الأرض، وهى تتذكر الفرح: ودى حاجه تتنسى يا ست.

ابتسمت هند، ودارت فمها بظهر يدها، لأنها تعرف الحكاية جيداً، مثلما يعرفها الجميع.

كانت أم جابر مع (غزالة) زوجة خال ناهد وأم هند فى السوق. وما إن اقتربتا من أمام القسم. حتى دخلت أم جابر مسرعة وهى تجرى. وركعت أمام الضابط وأخذت تبكى وتقبل يديه. وما إن رآها الضابط هكذا أمامه والحلة الكبيرة مليئة بعجينة الكُفتة على رأسها ورائحتها ملأت القسم، حتى هاج وصرخ ونادى على العسكرى كى يطردها. رفعت أم جابر ذيل جلبابها ووضعته بين

أسنانها وأخذت تجرى فى القسم والعسكري يجرى وراءها. وعندما لمح الحاجة غزالة قادمة. وقف صامتاً. انحنت أم جابر على يدها وقبلتها.

– والنبى يا ست. ورحمه سى جعفر. كلميه يا ست غزاله يفرج عن جابر.

الظابط ابن أخت جوزك وهايسمع كلامك.

وما إن نظرت الحاجة غزالة إلى الضابط وقالت: طلعه يا أنور. طلعه عشان خاطر خالك. وعشان خاطر الدم.

ضحكت أم جابر وهى جالسة: يووه يا ست ناهد لسه فاكره.

– وهى دى حاجة تتنسى. دى كل بولاق والسبتيه وسوق العصر والعتبه وروض الفرج. عرفت الحكايه. الحاجة غزاله الله يرحمها فضلت تجرى وراكى من عند المجموعه لحد الرمله، لحد الوكاله، وهى تحدفك بالطوب وتصوت من هناك لحد البيت والناس اتلمت. وحكت لهم الحكايه.

– كانت أيام يا ست. والصحه هابله. والناس كان بينها عشم.

وضعت ناهد كوب الشاى أمام هند، وأمسكت كوبها بين يديها وأخذت تستدفئ به.

– طوبه السنه دى بارده كدا ليه!

ضحكت أم جابر، وحاولت أن تمسح دموعها بظهر يدها. لقد تذكرت تلك الأيام.

عرفت ناهد أنها أخطأت بذكر ذلك فقامت وقبلت رأسها. والله ما كان قصدى.

مسحت أم جابر دموعها، وأخذت كوب الشاى وانصرفت بعيداً عنهما.

كانت تشعر لأول مرة أنها هشة، عجوز، ضعيفة، لا تستطيع

الجلوس طويلاً.

أمسكت ناهد بيدها. وأخذت منها كوب الشاى بعد أن شربته، ورأتها ترتعش، ثم تمددت على الأرض ونامت.

ضحكت ناهد.

- اوعى يا وليه تعمليها وتموتى.

خلى عندك دم.. النهاردا رأس السنة وهند عازمانا على الأوبرا بمناسبة عيد ميلادها.

"إن إسماعيل عندما أقام الاحتفالات الأسطورية بافتتاح قناة السويس ١٨٦٩".

ذهب بنفسه إلى فرنسا لدعوة الإمبراطور وزوجته أوجيني. وأناب نابليون زوجته لحضور الاحتفالات. فلما جاءت اهتز لها عرش الخديو ووضعها على رأس الجمع الحاشد من ملوك وأمراء أوروبا. وبدت في نظر الناس كأنها الهة الجمال والسحر والجلال..

أو كأنما بين وصيفاتها في هذه الجو الخملي، أشبه بكليوباترا وهي تصعد مياه نهر السندس لتقابل مارك أنطونيو. وبلغ من انبهار الناس بها أن قال الأيوبي: من يدريني أن تلك الإمبراطورة الجميلة الأندلسية المولد والنشأة قد تكون سليلة بيت عربي رفيع العماد. أو فرع دوحة ملكية أظلتها سماء (الحمراء) الشعرية في غرناطة، مسقط رأس تلك الإمبراطورية الجميلة، ومنبت صباها!!

ابتدعت هند عنهما بخيالها الشارد دائما، ونظرت بعيدا في الأفق تتذكر تلك الأيام الخوالي من العظمة والأبهة.. لعلها تستعيد هذا المجد الضائع في خيالها وترى أوجيني والخديو إسماعيل إلى جوارها.

***

ماتت ناهد ضاحكة. وكذلك هند.

أخذتا تواصلان الضحكات. ضحكة وراء الأخرى وكل منهما جسدها يهتز طرباً وسعادة. لدرجة أن هند شعرت بألم شديد أسفل سرتها، فوضعت يدها وقالت: آى. كفايه.

بينما راحت ناهد تمسك بطنها، وعيناها امتلأتا بالدموع، وشعرت بشيئاً ساخناً يفلت منها وينزل على الأرض، فمسحت دموعها وقالت: - اللهم أجعله خير.

ثم هبدت بيدها على كتف أم عسلية وهى تضحك وتحثها على الصمت.

- اخرسى بقى يا وليه وكفايه.

كانت أم عسلية بأسلوبها الشيق، الذى يتفوق على أسلوب أم جابر الخشن، والمتهكم فى سرد الحكايات تروى لهما ما فعلته ابنتها فاطمة الشرشوحة مع رجب الطرشجى عندما ضبطته يزنق هانم بنت أم عجوة الدلالة على بسطة السلم وسلب عرضها فى الظلام. وكيف هبطت فاطمة على رأسهما من السماء كالقضاء والقدر.

وسمعت تأوهات البنت وهى تتلوى ثم تتلذذ أسفله.

قامت من فورها بسحب ملابسهما الداخلية خلسة، وجرت خارجة تهرول وهى تزغرد وتغنى وترقص مهللة: يارجب يا وش النمله. مين قالك تعمل دى العمله.

ثم أحضرت جريدة طويلة وعلقت عليها الملابس، وخاصة ملابس هانم وبقع الدم ظاهرة عليها. وطافت فى الشوارع تغنى وترقص وتنادى.

– وشوبش يا أهل الشيخ على والشيخ غراب والمحروقى والفرنساوى ووابور الطحين والسكة الجديدة. شوبش يا أهل بولاق شوباش. رجب الطرشجى خرّق هانم بنت أم عجوة. هى تهلل. وأولادها وراءها يصفقون ويهللون: بص شوف رجب عمل إيه.

وكانت فضيحة تحاكت بها بولاق والسبتية والوكالة والعتبة وتحت الكبارى وفى الأسواق. وظلت تحكى على المقاهى لأيام طويلة. والذى زاد الطين بلة. وقوف فاطمة الشرشوحة أمام جامع السلطان أبى العلاء وانتظار خروج المصلين يوم الجمعة. وكانت فضيحة كبرى وقف لها شعر الرأس. وختمت أم عسلية ضحكها.

وقالت: جالك الموت يا تارك الصلاه.

هرب رجب. ومن يومها. وأدي وش الضيف.

وحكم الناس لهانم بأخذ عربة الطرشى عوضاً عن شرفها الذى أهدر.

وتحملت أم عسلية تربية أولاده.

مسحت ناهد عينيها وتنهدت. لا حول ولا قوة إلا بالله. يا وليه قولى كلام غير ده.

شربت أم عسلية آخر رشفة فى كوب الشاى، وقالت وهى تهب

واقفه.

– واللى خلق الخلق. ده حصل، حاجه تشيب لقرع. واسألى أم جابر. وهو أنا هاكدب. ولا هألف.

زغرت لها هند بعينيها: يا أم عسلية ربنا أمر بالستر.

ثم غمزت لناهد أن تحضر لفة الملابس التى جهزتها لأولاد فاطمة.

اقتربت أم عسلية من الباب واللفة فـ يدها ثم فتحته: وحياتك يا ست. كل ده حصل.

وعلى العموم بكره التلات تعالى معانا دقة أبو السعود. وانت تسمعى بلاوى وحكايات لها العجب. الدنيا ملانه بلاوى يا أستاذه.

وقبل أن تخرج رفعت ذيل جلبابها الطويل فظهر بنطلون رجالى كانت ترتديه.

ضحكت ناهد ونادتها مندهشة: إيه دا؟

نظرت أم عسلية إلى جسدها وضحكت: دا من صدناوى. بنطلون المخفى رجب. سابه بعد ما عمل عملته.

ضحكت ناهد ولم تستطع السيطرة على نفسها. ثم جرت مبتعدة إلى الحمام.

خرجت أم عسلية وهى تضحك: فتكم بعافيه.

كانت أم عسلية من عادتها، كلما تسير فى الشارع وتمر أمام المحلات، ترفع ذيل جلبابها حتى يظهر البنطلون الذى تتباهى به. وعندما يرونها التجار يضحكون، وأحياناً يجرى وراءها صبيان المحلات ويسألونها: إيه دا يا أم عسليه؟ اللى على على يا سيدى.

تضحك، وتغمز بعينيها المكحولتين، وهى ترفع الجلباب عالياً،

كى يظهر البنطلون بوضوح فيضحكون. وتضحك: دا من صدناوى. بنطلون المخفى رجب.

ثم تكمل سيرها، وعلى رأسها مشنة الجرجير والفجل وتنادى فى دلال ودلع.

– الورور. حمام وزغاليل.

"لقد أنفق الخديو إسماعيل القناطير المقنطرة من الذهب والفضة على هذه الاحتفالات، كي يبدو أمام ملوك أوروبا بمظهر الثراء الباذخ.

وكانوا جميعا يعرفون أن إسماعيل ابتز هذه الأموال من عرق الشعب الكادح ليقدم أطايب الطعام، وأثمن ألوان الشراب، حتى أن فرنسيا شرها قال بعد أن أتى على كل محتويات مائدته: "لقد أكلت ثروة ثلاثة فلاحين مصريين".

ضحكت هند بصوت مرتفع: يا ولاد الكلب، كل ده بذخ. ثم أغلقت الكتاب الذي في يدها واستمرت في الضحك وهي تمسح الدموع التي طفرت من عينيها من أثر الضحك.. وهي تحدث نفسها، والشعب لحد النهاردا لسه بيبيع فجل وجرير.

★★★

تنكرتا هند وناهد فى زى فلاحتين، وذهبتا مع أم عسلية، وصاحبتهما أم جابر يوم الثلاثاء فى رحلة إلى أبى السعود. كى تريا وتسمعا ما لم يخطر على قلب بشر.

وكانت ناهد تتعثر فى جلباب أم جابر الطويل، وتكاد أن تقع، لولا أن تسندها أم عسلية من الخلف وهى تضحك: اسم الله عليكى يا أستاذه.

كانت ناهد فى مشيتها تشبه الفلاحة التى جاءت إلى القاهرة لأول مرة. تظل تتلفت حولها فى اندهاش وانبهار، مع الشعور بغربة شديدة، فتمسك فى يد أم جابر وتضغط بقوة مثل طفل صغير. - اوعى تسيبينى يا وليه أضيع.

تقبض أم جابر على يدها وتضغط بقوة، وتتعلق بها ناهد طويلا.

هكذا كانت ناهد وأم جابر. وتضحك أم عسلية: إيه يا ست ناهد، أمال لو ماكنتيش متعلمة ومن مصر.

ضحكت ناهد خجلاً: والله الواحد عاش على قد ماعاش ولا كإنه شاف حاجة. عاش زيه زى الحمار. شوفى آنا سافرت واتغربت. لكن عمرى ماخفت زى النهاردا.

كانت هند أكثر تماسكاً ووعياً بما يدور حولها، تسمع بأذنيها، وتسجل بعينيها المشاهد والصور. بينما راحت ناهد منخرطة فى اندفاع غريب وأخذت تترنح مع النسوة وسط الزار. وأم جابر تسندها من ناحية، وأم عسلية من الناحية الأخرى.

ثم صرخت وسقطت على الأرض مغشيا عليها. أخذت أم عسلية تبسمل وهى ترفعها: اسم الله عليكى وحواليكى. الشابه جتتها مش خالصة يا ولاد.

***

"وكان إسماعيل قد ذهب إلى باريس وجيوبه ملأى بالنقود، وخزائن المصارف بباريس ولندن تحت أمره وتصرفه. ففتح يده بسخاء وبذخ لم يعهدها العالم الغربي فى عاهل من العواهل الذين زاروا المعرض، فبات أحدوثة إعجاب الجميع ولقبته الدوائر الاجتماعية (أسد اليوم).

وانكسف أمام أصفره الرنان، والمبذول بجود حاتمي، شمس جلال

السلطان على شدة سطوعها، ووقع فى خلد العامة أن الخديو إنما هو أحد ملوك (ألف ليلة وليلة) بعث إلى الحياة، ثانية، ليؤكد للملأ أن أقاصيص تلك الرواية إنما هي حقائق، لا حديث خرافة، وأنه (خليفة الفراعنة على عرش القطرين) أكبر ملك حلت قدماه أرض فرنسا، كما أنه أغنى عواهل الأرض قاطبة!!

استدارت هند بوجهها عن الكتاب ناحية هند وأم جابر وهما جالستان على الأرض تتحدثان عن رحلة أبو السعود وما حدث فيها وأم جابر تذكرها وناهد تنفي ما حدث وأم عسلية تضيف إلى الوقائع وقائع.

أشارت أم جابر، ومعها أم عسلية على هند بعمل حفلة زار فى بيتها، ودعوة الأكابر والمعارف من سيدات المجتمع الراقى وتسجيلها على شريط فيديو، حتى تقتنع ناهد بأنها ممسوسة، وبعد إلحاح متواصل، وإصرار ناهد معهما على ذلك، نفذت هند الفكرة بشكل أنيق.

طبعت كروت دعوة، وكتبت بخط مذهب جميل.

تتشرف السيدة/ هند جعفر النوبى.

بدعوة سيادتكم/ لحضور حفلة زار.

يوم الخميس الموافق 14 من ربيع الثانى

فى تمام الساعة السابعة مساءً.

وممنوع اصطحاب الأطفال. والعاقبة عندكم

هند جعفر النوبى

***

أسبوعاً كاملاً. أخذت تتندر أم عسلية بهذا الحفل الخرافى المهول.

ولولا وقوفها (هى وابنتها فاطمة الشرشوحة وأولادها وعبده عسلية) لضاعت الست هند.

وتناقلت الأحاديث على أفواه العامة والصفوة وتحت كوبري أبو العلا وأمام المحلات في الوكالة، وفي السهرات على المقاهي وظل شارع ٢٦ يوليو من بولاق إلى الزمالك ساهرا ليلة الحفل.

عرفت بولاق بهذا اليوم المشهود. كانت الليلة الكبيرة لمولد السلطان أبى العلاء. تجمع الفقراء والمريدون والشحاذون والمجاذيب وصبيان الوكالة أمام الباب الخلفى للقصر. لكى ينال كل منهم نصيبه من العجل المذبوح.

ووقف عبده عسلية وأمه وأخته وأولادها، يزيحون الناس من أمام الباب، حباً وكرامة للست هند. خلع عبده ملابسه. وظل بالملابس الداخلية. وخلعت فاطمة الشرشوحة الشبشب ووقفت حافية القدمين وشمرت يديها جيداً.

ورفعت أم عسلية جلبابها وربطته على وسطها، وتركت البنطلون الأثير واضحاً وظاهراً.

وكانت أم جابر وجابر وسمرة وعلى بالداخل، فى حركة مكوكية بين الجزار، ولف اللحم، وإعطاء المحاسيب من الناس الفقراء. أو إعطاء الأقرباء أولاً كما قالت أم عسلية زاعقة: - أنتِ بتدى محاسيبك وبس.

وفى نهاية الحفل كما قيل على ألسنة الرواة والمتحدثين في الأسواق والجوامع والمحلات والبيوت.

"تم ذبح ثلاث عجول وخمس خرفان، ومئات الدجاجات. ثم تم الإتيان من عند عيسى الفرارجى ومنفذ بيع القوات المسلحة بجميع الدجاج الذى لديهما. وعشرات الكيلوات من اللحم الكندوز والبتلو من جزار الجمهورية على حساب الست هند. وتم الذهاب إلى بائع السمك المجاور. ووسط الهوجة. أخذ السمك على الحساب. كما تطوع الحاج مراد بائع الفاكهة بإرسال صناديق التفاح الأمريكانى والموز المغربى، وعلب الأناناس والمانجو وزجاجات المياه الغازية".

كما أشيع بعد ذلك أنه تطوع بعض الأهالى من السكان بالعديد من الأرغفة الطازجة. وكان يوماً مشهوداً (فرح جنب طهور) كما تندر أهالى الحى. وأقسمت أم عسلية بذلك. وإن الناس ولأول مرة تهجر الليلة الكبيرة للسلطان وتذهب لحفل الزار.

وانتهى الحفل.

بأن تعشى المعازيم الكبارات بطلبات (تيك أواى) من ماكدونلدز وكنتاكى.

وفى اليوم التالى. كانت روائح اللحم اللذيذ والطبيخ تنبعث من جميع بيوت بولاق والوكالة ومستشفى الجلاء ومبنى الأهرام والأخبار وشارع الصحافة ومستشفى السكة الحديد إلى ميدان رمسيس. حيث طال الفراشين والسعاة من الحب جانب.

وبعد حالة الهجوم والاكتساح التى تمت على القصر والتى انتهت باستدعاء الأمن ورجال المطافى لإزاحة الناس من أمام الأبواب لخروج الضيوف الذين تم حبسهم لمدة ثلاثة أيام متواصلة، لا يستطيعون فيها الخروج رغم محاولات (عبده عسلية وجابر وأم جابر وسمرة وأم عسلية وابنتها وأولادها والجزارين وفراشين المدرسة) دون فائدة. لقد سمع أهالى الكيت كات وإمبابة وبشتيل، وبولاق الدكرور بهذا الحفل المهيب فأتى الجميع.

وفى اليوم الرابع بعد الحصار.

جلس عبده عسلية على مقهى على بابا يتندر أمام الجميع أنه خرج من المولد بلا حمص.

مع العلم أن أمه أرسلت أولاد ابنتها عدة مرات لإحضار الشاى والسكر من البيت.

ولم يحصلوا سوى على رؤوس العجول الثلاثة. وأن هانم بنت أم عجوة حصلت على فخذ عجل، وربع ضأن وثلاث دجاجات وبعض المعلبات التى أتت بها من أسفل الموائد. وأن أولاد أخته فاطمة تعشوا ليلتها سندوتشات تيك آواى من الشاورمة والهامبرجرر. وأخذ يمط شفتيه وهو ينطق الكلمات نطقاً صحيحاً وفى يده الشيشة يدخن.

بينما جابر ابن أم جابر.

لم يحظ بنصيب الأسد الذى حظى به (عبده العجل) كما سيطلق عليه بعد ذلك بدلاً من عبده عسلية. بل ظل جابر هو وزوجته وأمه وابنه على لحم بطنهم لمدة ثلاثة أيام متواصلة إلى أن فك الحصار، وخرج المعازيم فى أمان. وذلك حزناً على السلب والنهب وقدوم التتار كما كان يحكى فى الفرن وهو يرص العيش. دى كانت هوجه ولا هوجة الحرامية فى ٧٧.

تندرت بولاق جميعها بأسلوب الحفل والزينة والضيوف والأكابر وكرم الست هند الجعفرية. وأخذوا يصفون الأكابر الذين حضروا الحفل. وكل واحد منهم يصور حسب مزاجه ويدعي أنه رأى أو شاهد وهم: (حرم البيه، وحرم وزير....، والموظفون، وحرم مدير الأمن وحرم مأمور القسم والضباط، وبعض زوجات رجال العلم والصحافة والقضاء، والإذاعة والتليفزيون). وأخذت أم عسلية تحلف بأيمانات المسلمين أنها رأت المذيعة الجميلة وسط

المعازيم وكذلك زوجات الكبار الكبار. وادعت فاطمة الشرشوحة ابنتها أنها رأت زوجة السيد وزير... ومعها الست وطلبت منها شخصياً أن تحدث زوجها فى أمر رجب الطرشجى. وأن يبحث عن الهارب، ويعيد الطفشان إلى بيته وأولاده.

وفى صباح السبت من الأسبوع التالى لليوم المشهود. وقف الأستاذ أبو الحجاج ناظر المدرسة فى طابور الصباح وخطب خطبة عصماء وأشاد بدور العلم والعلماء، وخاصة المربية الفاضلة الأستاذة (هند الجعفرى) بما تقدمه وتبذله من عطاء لأطفال المدرسة وأهالى الحى. ومنحها فى هذا اليوم لقب (الأم المثالية).

وبعد انصراف التلاميذ الذين ظهرت النعمة على وجوههم، ونضحت السعادة فى عينيهم، وزال الأصفرار والضعف والهزال بعد الوليمة العظيمة.

دخل كركر الفصل على ناهد وناداها: كلم يا كركور.

- مين يا عم كركر.

- كركر فى المكتب بيكركرك بسرعة.

جرت ناهد تاركة الفصل، وذهبت إلى مكتب الناظر، تاركة التلاميذ.

انتهز أبو الحجاج الفرصة، ودخل الفصل وسأل التلاميذ عن المدرسة وعمل محضر إثبات حالة. خروج بدون إذن. ثم دخل المكتب منتصراً، مبتسماً، وفى يده الورقة. وجد ناهد واقفة مرتبكة. وهند جالسة فى حالة هدوء تام.جلس على المكتب متربعاً مختالاً. ثم استفز هند :إيه يا ست. هو احنا مش قد المقام؟ ولا من المحاسيب. عشان تعزمينا. ولا كنت افتكرينا بورك ولا حتة ضانى. ولا عشان ماعندناش زوجة تنفع لليوم ده.

حاولت هند الحديث. ولكنه قاطعها: ولا الأسياد مش عايزانا.

حاولت ناهد الكلام. ولكن هند أشارت لها أن تصمت. لقد عرفت مغزى الحوار جيداً. وتعرف ألاعيبه. ثم واصل هو حديثه: دا حتى الناس اللى فوق. فوق زعلانين قوى. ويمكن الأمر يوصل لمكتب الوزير. أمسكت هند ورقة، وبهدوء كتبت طلب إجازة بدون مرتب.

ضحك أبو الحجاج، وأرجع ظهره للوراء وأخذ يتأرجح مع هزات الكرسى الدوار يميناً وشمالاً. وأمسك الورقة وأخذ يقرأ وهو يضحك استخفافاً.

– إجازة بدون مرتب. وإنشا الله دى رعاية طفل. ولا مرافقة زوج.

صمتت هند ولم تنطق. نظرا لسخافته وأسلوبه، ثم خرجت من المكتب وتركته.

خطفت ناهد الورقة من يده فى سرعة وقامت بتمزيقها. شاط أبو الحجاج غاضباً، وأخذ ينادى: ياكركر. انتَ يازفت.

جاء كركر مسرعاً وهو يلهث. أيوه يا كركور.

– روح شوف مين فى فصل الأستاذه بسرعه.

خرجت ناهد مسرعة، وهى تحاول أن تسبق الفراش وتدخل الفصل.

ولكن أبو الحجاج ناداها: عندك يا أستاذه. هى وكالة من غير بواب.

وقفت مكانها، وهى تستعيذ بالله من الشيطان. وتتحدث بصوت خفيض.

– اللهم اخزيك يا شوشو. نعم.

قام من مكانه ووقف إلى جوارها وهو يتأملها جيداً: أنعم الله عليكى.
ثم أخرج الورقة من جيبه ووضعها فى يدها، وأعطاها قلما وقال: امضى.
نظرت ناهد إلى الورقة وسألته: إيه دا؟
- محضر إثبات حالة. حضرتك مش فى الفصل. واحنا فى الحصة الأولى.
زفرت ناهد زفرة طويلة، ثم هبدته على كتفه، بقوة، ومزقت الورقة.
- واخرتها يا ورور.
- ...
مط شفتيه صامتا، وهز كتفيه.
- وإن قلت لأ.
- يبقى جَنت على نفسها براقش.
خرجت ناهد غاضبة، وهى تحاول السيطرة على انفعالاتها. فرأت باب المدرسة مفتوحاً، فجرت مسرعة إلى الشارع مهرولة والفراش يجرى وراءها.
- خد يا كركور. الحق يا كركر.. دى كركرت.
قام أبو الحجاج بغلق الباب بالقفل. وشطب اسمى هند وناهد من دفتر الحضور والانصراف.

***

"والأكثر دهشة أن عدالة السماء انتقمت من كل هؤلاء الذين أكلوا ثروة الفلاحين المصريين وحشوا بها بطونهم، وأصابتهم اللعنة بعد عودتهم إلى ديارهم، ولم تمض بضعة شهور حتى كانت ألمانيا قد أعلنت الحرب على فرنسا (حرب السبعين) وهزمتها هزيمة

منكرة هوت بسمعتها إلى الحضيض. وإذا بالأمير الألماني الذى كان يراقص (أوجييني) فى قصر الجزيرة ويبادلها عبارة المجاملة الكاذبة. يطيح بعرش زوجها الامبراطور نابليون الثالث. أما (أوجينيى) التى بدأت كأميرة الأحلام فى مصر. فقد هوت من عالق العز. وزال عنها جمالها. وذبلت عنها فتنتها التى سحرت عاهل مصر. وإذا بها تنجو بحياتها على سطح قطار حملها إلى انجلترا. وهبطت إلى محطة لندن. وهى معفرة الثياب والوجه وليس معها إلا القليل من المال والمتاع. وذابت فى زحام العاصمة دون أن يشعر بها أحد. وعاشت فى عزلتها الباردة. وهى تعاني آلام الشخيوخة حتى هزمها الموت.

عانت هند من الآلام والآمال المحبطة، حتى آخر محطة في حياتها (المدرسة) التي كانت ترتكن إليها كعمل لإضاعة الوقت أصبحت تمقت دخولها، لأي سبب، وظلت جالسة في البيت.. تراجع أوراقها وأيامها وذكرياتها التي مرت في سرعة وسهولة ويسر دون توقف. منذ وفاة حمزة وإلى الآن انغرست لأذنيها داخل الكتب والتاريخ والواجب.

***



(ليس لدى الرجل الشجاعة الكافية أن يقول رأيه فى المرأة أمامها بمفردها فى عزلة. ولكن يجهر بهذا الرأى أمام الآخرين سواء بالسب أو الإيجاب . أى الثناء أو الفضح.
وأحياناً هناك رجال ممن يقومون بسب المرأة وضربها خاصة أمام أهله وأولادها حتى يظهر لهم قوته وعنتريته وسيطرته الكاملة عليها).

س: لماذا قتلتِ جابر يا سمرة؟
جـ: ماكنش يِحلى له الشتيمه يا باشا أو الضرب والبهدله إلا أدام أهله.
وبعد ما يمشوا يبقى زى الفار، وكاشش وخايف.
س: خايف من إيه؟
جـ: ممكن أمسك فيه أو أهزاؤه. بس أنا ماعملش كدا يا بيه.
س: هل سبق له ضربك؟
جـ: كتير كتير قوى.
س: تفتكرى أول مرة؟
جـ: ليلة الفرح. وتانى مره بعدها بيومين. كان كل ما يعوز..

يدور فيا الضرب. وأمه كانت تقولى قومى شوفى جوزك. أسيب اللى فى إيدى وأفضل أحايل فيه يسكت.

س: ماذا فعلت بعد ذلك؟

جـ: فى مره كَنا لوحدنا وكانت أمه فى المولد. وهو بيحسبها جوه وراح شاتم ومعلى صوته رحت قبضه فى زمارة رقبته وقلت له: هاروح فيك فى داهيه لو شتمت ولا ضربت تانى.

س: وبعدين؟

جـ: المفروض كان يختشى. أبدا.

فات كام يوم، وجت اخته وبناتها يزرونا، راح عامل فيها عنتر قدامهم وضربنى. انا انكسفت وسكت ولميت نفسى. وهو ساق فيها وراح ضربنى بالوابور والع. وبقى كل ماحد يحوش منهم يلعن سلسفيل أبوه.

س: لماذا أمام أهله؟

جـ: بيحمر وشه قدامهم. ومنها يتحامى فيهم.

س: وأمام أهلك؟

جـ: مع أهلى ما يقدرش يكح، ولا يقول بم ألا يقولى يا أم على، يا ست هانم، ويعمل مؤدب، وإيه ملاك نازل من السما، وإن اشتكيت، يقولوا: يا بت جوزك غلبان وأمير بلاش افترى.

س: اشتيكتى لحد من أهله؟

جـ: كتير يا بيه. وأمه شاهده. قالتلى: كل الرجاله كدا. والست العاقله تفوت. تسقط له فارغه. والراجل ومراته زى القبر وأفعاله.

س: طيب ليه استمريتى معاه؟

جـ: العيال يا بيه. هما اللى بيكسروا النفس. ويخلوا الواحده تستحمل.

س: وليه قتلتيه؟

جـ: زهقت. وانا كبرت. وهو ماعندوش دم. بقى صاحب كيف. وقعد طول النهار زى قرد قطع فى البيت، لا شغله ولا مشغله. والواحدة تستحمل الجوع، العرى.. إلا البهدله وقلة القيمه. بيدارى خيبته وضعفه. عايز يورى الناس انه غضنفر. ومن ساعة ماسرح ورا عبده العجل ابن أم عسليه وهو خاب. بقى كداب زفه. وكل ماعبده يقوله: حصل يا جابر.. يقول حصل يا عُبد.

س: طيب يوم مامات إيه اللى حصل؟ أقصدى يوم ما قتلتيه؟

جـ: خلانى رجعه من السوق تعبانه. أصل بقيت أبيع شويه خضار فى السكه الجديده. والواد على كان قاعد بيذاكر. وراح هابد المشنه من على راسى ونازل ضرب. وفين يوجعك، وانا تعبانه وهمدانه، وانا أصوت لحد لما أغمى عليا. الواد يحوش فيه مش قادر. وفجأة لقيته قلع، وبقى عريان زى ما ولدته أمه وعايز... معرفش السكينه جت فى إيدى ازاى.. ضربته. وكل ما هو يصرخ أنا أضربه أكتر. زهقت يابيه وطهقت. والبهدله وحشه.

كان يوم مقتل جابر يوما مشهودا.

قتل وسط الجميع. وأمام عينى ابنه. وكانت شجاعة سمرة، هى مثار الحكايات والحواديت لأيام طويلة. وكل يضيف إليها ما يحلو له من نسج الخيال، وخاصة عبده العجل الذى تباهى بأنه الوحيد الذى نزع السكينة من يد سمرة بقوة خارقة.

***

مرضت أم جابر، مرضاً طويلاً، حزناً على ما حدث.

وجاءت بها هند إلى بيتها وفاء وكرامة، وطلبت أم جابر أن ترقد

على سرير رباب ولأول مرة فى حياتها، لا تخاف من الأسياد أو العفاريت. جلست هند إلى جوارها شهرين كاملين. وعندما جاءت ناهد بصور الأشعة والتحاليل، لم يجد الطبيب شيئاً. كل ما هنالك أنه الحزن والشيخوخة. دخلت ناهد الحجرة، وجلست إلى جوارها على طرف السرير. وقامت هند تصنع كوباً من الشاى.

قالت ناهد وهى تمسك يد أم جابر وتضغط عليها بحنان: كل مره ترقدى الرقده دى، شهر ولا اتنين، وبعدين تقومى زى الحصان.

نظرت أم جابر إليها بعينين متعبتين: خلاص بقى. الجمل برك.

قبلتها ناهد فى رأسها: ولا برك ولا حاجة. دول شوية دلع. واللى يسيبك تقومى تلفى فى الموالد. دخلت هند حاملة كوبين من الشاى.

وكوباً كبيراً من اللبن، ثم طلبت من ناهد أن تجلسها. كل منهما تمسك كوبها وتشرب، وأم جابر صامتة تنظر إليهما. هند: فاكره يا ناهد الليله الكبيره للسلطان أبو العلا. السنه اللى فاتت.

تضحك ناهد وتطوح رأسها للوراء.

- ياه، هو يوم يتنسى. يوم الزار العالمى. فاكراه زى ما يكون دلوقتى.

كانت أم جابر شايله سبت العيش على راسها. وانا عماله أفرق العيش باللحم على الناس. وفجأة، صرخت، ورمت السبت على الأرض، وفضلت تنده: يا شيخ عليش. يا وله. وتجرى زى المجنونة ورا الراجل المجذوب. وراحت موقفه الظابط وقالت له: وحياة شبابك يا اخويا، امسك الراجل المجذوب ده. الظابط

أمر العساكر يجروا وراه. راح الشيخ عليش ماسك حفنه تراب من الأرض وراح راميها عليهم وفضل يقول: وجعلنا من أمامهم سدا، ومن خلفهم سدا، فأغشيناهم فهم لا يبصرون. والعساكر تصوت. راح الظابط واخدها على القسم. ولولا أنور ابن عمتك كان زمانها فى السجن.

***

ما إن غفت أم جابر، وراحت عيناها فى النوم، حتى خرجت ناهد ووراءها هند، على أطراف أصابعما. هند: والله يا ناهد. أم جابر ناويه تعملها المره دى بجد وتموت.

ناهد: ياختى هى دى أول مره ترقد.

طول عمرها ترقد شهر وتقوم زى القرد. عمتى غزاله الله يرحمها كانت بتقول عليها دى زى القطط بسبع ترواح.

هند: لأ.. لأ. قلبى مش مطمن. لو ماتت هاعمل إيه مع على.

ناهد: إيه يا هند.. هايرجع لأهله طبعاً.

هند: لأ.. لأ. على عندى زى نور.

ناهد: إزاى؟

هند: هاكتب الميراث بالنص بين على ونور.

صرخت ناهد منزعجة وغير مصدقة.

ناهد: معقول يا هند. تورثى الغجر مُلك جعفر. وامك اللى ياما فرقت بينك وبينهم.

هند: كل اللى كان مرات خالك خايفه منه حصل. غجر إيه بس. ده زمن وخلص. نور محتاجة أخ يدافع عنها. وبكره على يكبر ويبقى عال. الولد مجتهد وأنا بحبه.

ناهد: بس ده ابن جابر وسمره. والمال هيساعد نور ويخلى كل

الناس جنبها.

هند: ولما يخلص المال؟

ناهد: يحلها الحلال. وانا عند وعدى هاخدها لمحمود ابنى.

هند: ونسيتى نور بنت مين؟ مش بنت جابر وسمره.

ناهد: نعدل الميزان، واتبنيها واكتبيها على اسمك.

هند: أنا فكرت خلاص. والميزان كفه لنور وكفه لعلى.

ناهد: يا بنت خالي. تدى بنتك للغجر بسهوله. وعايزه تورثى ابنهم كمان. ده عقل. ده حرام وانا امنعك.

هند: مش أحسن ماتعرف إن أمها عبيطه. اجوزت أبوها بأسلوب عبيط وخايب.

صمتت ناهد ولم تجب. وأطرقت برأسها للأرض تفكر ثم قالت. قولى لها الحقيقة يا بنت خالي. وشوفيها هاتقول إيه.. نور مش صغيره.

هند: ماهو اللى ربوها أهلها. حمزه يبقى ابن أخو أم جابر اللى اجوز الرقاصه وأخوه قتله.

وأثناء حديث هند وناهد خرجت أم جابر من الحجرة تستند على الحائط وهى تنادى.

– يا ست هند. يا ست ناهد.

ثم سقطت على الأرض. جرت هند مسرعة ووراءها ناهد، ورفعتاها من على الأرض. وحاولتا إدخالها ولكنها رفضت وقالت: عايزه على ونور.. ودونى أوضة الست رباب.

دخل الثلاثة الحجرة، كانت رائحة البخور تملأ المكان. وقفت أم جابر برهة فى شموخ ثم قالت: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. سامحينى يا ست رباب.

ثم دخلت بقوة كأن العافية ردت إليها. وقالت: عايزه أدخل

لوحدى.

تركتها ناهد وعادت إلى الصالة، ثم تبعتها هند. ودخلت أم جابر وأغلقت الباب خلفها.

انسحبت هند وجلست جوار النافذة تقرأ في صمت، وناهد تجلس على الكرسي جوار الباب لتسمع صوت أم جابر وتكون قريبة منها.

نهض إسماعيل وتقدم من ابنه - الخديو الجديد - وانحنى فلثم يده وقال: إني أسلم على أفندينا، ثم قبله على وجنتيه، وتمنى له أن يكون أوفر حظا وأكبر سعادة من أبيه، وبعد ذلك انحنى أمامه ودخل إلى دائرة الحريم، تاركا توفيق يجلس على عرش مصر. ويبدأ حياة جديدة كانت وبالا وشؤما على البلاد والعباد..

***



أرادت هند أن تسير أكبر قدر من الوقت فى هذه الليلة الباردة أول ليلة من ليالى يناير. كانت الشوارع غارقة فى أوحالها، بعد ساعات من المطر المتواصل.

وهى تسير فى دوامة من الأفكار والوحدة والبرد. وتسأل نفسها ما جدوى العودة إلى البيت. بيت الملائكة الأموات. وكلما ضاق صدرها، كلما سارت أكثر وأكثر كى تفتت الصخرة الراسخة على صدرها، وتريد أن تنشر هذا الغضب والعنف الذى يقتلها. تعبت عيناها من البحث عن شىء تتعلق به، تتأمله ولو لدقيقة واحدة. الهوة شاسعة بينها وبين الآخرين، ومحاولة ناهد من منعها كتابة الميراث لعلى ونور. جعلت بعض الأحزان تسيطر عليها. المحلات مزدحمة بكثير من الألوان المبهجة والملصقات التى تهنئ بالعام الجديد.

مرت عيناها سريعاً على محل ورد.

تريد أن تشترى ورداً، فهى تحب الزهور، وتملأ بيتها بالخضرة والزرع. ولكن لمن تشترى الورد وتهديه له؟ لم لا تشتريه لنفسها، وتضعه فى آنية جميلة وتتأمله. عله يخرجها من عفونة الوحدة والأرق الذى لا ينتهى. ناهد ونور وعلى أسماء تملأ رأسها وتزدحم

بهم. غداً وقفة العيد. واليوم عيد ميلادها. ضحكت وقالت (بأى شيء جئت يا عيد؟!)

جملة قديمة! ولكنها مناسبة. أى عيد يخصها؟

تركت الشوارع والأوحال، والبرد، ونزلت إلى محطة المترو، جلست تستمتع بالدفء، والورد، والناس.

مر قطار.

قطاران.

ثلاثة.

الساعات تمر.

والدفء يغمرها. أغمضت عينيها قليلاً. سمعت صوتاً يناديها بهمس. كل سنة وانتِ طيبة. مددت ساقيها، وانتظرت الصوت يهمس.

رأت حمزة، يمتطى حصاناً أبيض يمد ذراعيه نحوها، ويختطفها.

فتحت عينيها ببطء. رأت رجلا يجلس جوارها مستكينا مثل قط عجوز.

قالت فى نفسها: هل يوجد آخرون مثلى يعانون من الوحدة والبرد. مدت يدها بوردة وأعطتها له. وقالت: وانت طيب.

رأته يترك القطارات تمر، وهو يجلس متأملاً الناس ويشم فى الوردة.

مسحت على ركبته قليلاً، ثم قامت واقفة، ونطت داخل القطار.

"أما إسماعيل فقد بدأ يتهيأ لمغادرة القاهرة فى القطار الخاص.. الذي سيحمله إلى الإسكندرية حيث يستقل اليخت (المحروسة) ولكن إلى أين..؟

كان إسماعيل يأمل أن يقضي بقية أيامه فى الاستانة. إلا أن السلطان عبد الحميد غليظ القلب حرم عليه أن يقيم فى أي بلد من ممتلكات الدولة العثمانية.
وشاء القدر أن يعيش إسماعيل طريدا شريدا فى العواصم الأوروبية التى طالما شهدت أيامه عزه ومجده..

نزلت هند من المترو في محطة جمال عبد الناصر وأخذت تسير وسط شوارع بولاق الحبيبة التي شهدت طفولتها وصباها وحبها لحمزة، الذي كان يجلس طوال الليل على مقهى علي بابا ينتظر خروجها لأي سبب حتى يسير وراءها في الحواري والأذقة يتطلعان بعيونهما إلى المشربيات والبيوت القديمة ثم يقفا أمام السلطان يقرأ الفاتحة في صمت، هي تدخل البيت وهو يظل واقفا حتى آخر الليل.. تنهدت هند كثيرا وبكت عينيها من كثرة الحزن والألم والصمت، وهي ما زالت تسير في الحارات.

★★★

عند بيتنا وراء القسم.
الشمس تلف دورة كاملة.
كنت أراها واضحة،
فوارة فى عنفوان شبابها،
تتشابك مع سكان الحى بخيوطها الذهبية، وتربطهم من أطراف شعورهم.
كانوا أناسا طيبين.
لا يسرقون الوقت،
كل ما يعرفونه هو؛
(أن الله خالق كل شىء، ويعرف كل شىء).
وراء القسم..

كان المجرمون طيبين بسطاء.
فى سرقاتهم، نكاتهم، عذابهم.
كان حلمهم بسيطا مثل طيبتهم.
فهم لا يأكلون اللحم ولا الفاكهة.
فقط يعرفون أن الشمس تشرق كل صباح، وتغرب كل مساء.
(وأن الله يراهم، ويعرف ضمائرهم)
وراء القسم..
النساء الصغيرات يتكدسن داخل حجرات رديئة، سيئة،
ولكن الشمس تمحو العطب.
النساء تدهشك بساطتهن، طيبتهن.
ثيابهن الخفيفة، خفة روحهن.
وأفخاذهن العارية على طشوت الغسيل الزنك، وماء الطرمبة.
والحرارة لا ترتفع إلا فى الليل.
والهزر لا يعلو إلا فى المساءات.
ورائحة العدس تفوح من الأطباق الصاج.
وتدور الأحاديث حول..
(الجيش، والبلد، والبت اللى فارت، وسبعة وستين وجمال، والغلا والكوا)
وراء القسم..
كان لى بيت كلما مررت به
شممت رائحة الهدوم وصابون الغسيل، وماء الحموم على الأبواب.

وقفت هند طويلا أمام الباب تتأمل البيت وتتسمع الأصوات القديمة تأتي من العمق من الداخل، من خلف الأبواب، صعدت السلم في هدوء تنير درجات السلم المظلم بضوء الموبايل، وصعدت

إلى حجرة حمزة وفتحت الباب، وجلست طويلا تسمع صوته أو لعله يأتي إليها فاردا ذراعيه ليخلصها من هذا العذاب وأخذت ترنو إلى الحوائط والأبواب تستنطقها من صمتها القديم ثم هبطت السلم بعد ذلك في صمت وخشوع.

***

وقفت هند مندهشة ترنو بعينيها القططية وهى تشير للبائع بأصبعها إلى الشرائط المصفوفة فوق الأرفف: عايزه ده، وده، وده.

يضع البائع أمامها الشرائط مبتسماً لذوقها وسعيداً بالمبلغ الذى ستدفعه.

فلأول مرة تدخل امرأة بهذا الشكل الأنيق، وتطلب منه شرائط قديمة راكدة.

(عبد الغنى السيد، محمد عبد المطلب، عبد العزيز محمود) انتشى البائع، وهرش فى رأسه. وقال لها: عندى مجموعه شرائط نادره. هل ترينها.

قالت: أراها.

قال البائع: وهو يحاول أن يتذكر أين رأى هذا الوجه من قبل، إنه لا يدرك الآن. أفرغ الأرفف جميعها، ووقف أمامها يختار لها الشرائط ويقرأ الأسماء والأغانى والمغنين.

– ها ما رأيك فى صوت صباح فخرى ووديع الصافى.

– الله جميل.

– طب ما رأيك فى صوت نازك ونور الهدى. ونجاة على.

- رائع.
البائع يرص الشرائط ويضعها إلى جوار بعضها.
- ما رأيك فى شرائط فيروز التى لحنها زياد الرحباني.
- مذهل.
كان كلما يذكر لها اسم شريط تنبهر به وتأخذه. أخذت الفرحة تنط من عينيها غير مصدقة هذا الكم الهائل من الشرائط النادرة والأصوات الرائعة. والبائع مازال يدعبس بيديه ويبحث بعينيه هنا وهناك، فوق الأرفف عن شريط نسى أن يعرضه، أو مغنى نسى اسمه.
- ها ما رأيك فى صوت ليلى مراد.
- فى فيلم غزل البنات.
- نعم.. وأفلام كثيره.
- رائع. أنتَ حقاً بائع رائع. يالها من صدفه أن رأيتك.
البائع يضيف ويرص ويبحث.
- ها ما رأيك فى أغنية العيون السود لوردة؟
- أوه. صوت وردة جميل. وأنا أحب أغانيها القديمة. أيام ألمظ وعبده الحامولى.
- تقصدين الفيلم.
- نعم.
- ولكنك جميلة. وأغنية العيون السود رائعة. وعيناك جميلتان.
أخذت تكح بصوت مسموع ومنتش.
- هيه .. وبعدين.
- والله بكلم جد، العيون السود جميلة.
- وبعدين معاك.

وضع البائع الشرائط جميعها. وأخذت تقرأ ما يقرب من ساعتين أسماء الأغانى.

ووقف هو بعيداً يتطلع إلى عينيها، ثم يردد بينه وبين نفسه: مالها العيون السود.

ثم انتهز فرصة اختيارها الشريط ، وفتح حواراً معها، وأخذ يرص أمامها بعض الشرائط الحديثة.

– ما رأيك فى أليسا، ونانسى عجرم وكارول سماحة؟

– لأ.

– طب عمرو دياب وعاصى الحلانى؟

– وبعدين.. آنا بحب القديم.

– الشباب يا مدام الشباب.

كان يتكئ على كلمة الشباب بأكثر من طريقة، وأكثر من دلالة، وعندما ابتسمت.

قال لها: أظن هذا الشريط رائع. أغانى عبده السروجى (غريب الدار).

توترت هند قليلاً، وعادت بظهرها للخلف. تتأمل الشرائط وهى صامتة.

ثم قالت له: عايزه شريط وديع الصافي يا عيني ع الصبر ودار يا دار. والحساب.

أمسك البائع الآلة الحاسبة، وأخذ يضغط على الأرقام ويعد الشرائط ويحسب.

ثم قال منتشياً: ألف وثلاثمائة جنيه.

ثبتت عينيها فى عينيه.

– نعم.

قال مداعباً: مدام أكتب البون وألف الشرائط. صمتت قليلاً.

ثم غادرت المحل فى وقار ودهشة.

أخذ البائع يناديها.

– يا مدام. يا مدام. أنا شفت حضرتك فين قبل كدا؟

التفتت له بدلال، وأشارت بأصبعها.

– مش مهم.. مش مهم.

هرش البائع فى رأسه مغتاظاً وهو يحاول أن يتذكر أين رآها.

قالت له وهى تتوارى مبتعدة.

– انسى.

عاد البائع يرص الشرائط على الأرفف من جديد، وهو يحاول التذكر، ووجهه يزداد حنقاً وغيظاً. أين رأى هذا الوجه من قبل؟

"في صباح يوم ٣٠ يونيه ١٨٧٩ نهض الخديو إسماعيل من نومه بعد آخر ليلة قضاها فى قصر عابدين، القصر الذي بناه وجعل منه تحفه معمارية ومقر للحكم بعد أن ظلت القلعة المقر الرسمى لحكام مصر منذ صلاح الدين الأيوبي.

هبط إسماعيل إلى الطابق الأرضي فوجد فى انتظاره جمع غفير من الأمراء والوزراء والكبراء والتجار والأعيان.. جاءوا لتوديع أميرهم الوداع الأخير بعد أن عاشوا فى كنفه سبعة عشر عاما كانت أشبه بزلزال هز مصر من أعماقها ونقلها إلى مشارف المدينة الحديثة. ثم هبط بها إلى هاوية الدمار والوقوع فى براثن النفوذ الأجنبي. وها هو إسماعيل يطوي صفحته الأخيرة بخيرها وشرها، ويستعد لمغادرة البلد الذى أراد أن يجعله قطعة من أوروبا. فإذا بأوروبا تتآمر عليه، وتجمع كلمتها على إقصائه ونفيه من مصر، بعد أن استشعرت الخطر من تصاعد النزعة الوطنية والتفافها حول إسماعيل.. عندما حانت الساعة الحادية عشرة جاء الخديو الجديد (توفيق) ليصحب أباه إلى مثواه الأخير.

كانت هند تجلس في جروبي تستمتع بدفء المكان وهى تدنو بعينيها إلى الخارج وتتابع سير المارة والعربات في شارع ٢٦ يوليو، وأمامها يتجلى التاريخ واضحا حريق القاهرة في ٥١، حريق القاهرة في ٧٧، والحرائق القادمة. رشفت آخر رشفة من الفنجان وتركت الحساب على المنضدة منصرفة وهي ما زالت تعيد التاريخ والأحداث في رأسها.

***

ما أن دخلت هند من الباب.

حتى صرخت ناهد فيها زاعقة.

- كده يا هند. تسيبينى لوحدى. مع الوليه اللى بتموت جوه. وتخرجى.

أخذت هند رأس ناهد بين أحضانها وقبلتها، وكانت الدموع تنزل من عينيهما ساقطة. وأفاقتا على صوت نداء.

- يا ست هند. يا ست هند.

ضحكت هند، وأبعدت رأس ناهد عن صدرها.

- ما هى صاحيه زى القرد. ماماتتش.

ثم دخلتا الحجرة فى سرعة. جلست كل منهما على طرف من السرير، وأم جابر نائمة.

أم جابر: صلوا على النبى.

هند وناهد: عليه الصلاه والسلام يا نبى.

أم جابر: أنا شفت اللهم أجعله خير. عيال صغيرين قد نور وعلى، أتلفوا حوليا وخدوا إيدى، وفضلوا يلفوا بيا المشايخ.. شيخ.. شيخ. نطلع من السيده، نروح الحسين، ومن الحسين للدسوقى، للسيد البدوى.

وآخر المتامه، رجعت عند حبيبى السلطان أبو العلا.

سحبت هند يدها من يد أم جابر، وهى تحاول أن تدارى دموعها.

هند: يا وليه يا خرفانه. يا بتاعة الموالد عايزه تفهمينا إنك لفيتى مصر بحالها، وأنت قاعدة هنا.

ضحكت أم جابر وقالت: دى بركة الأوليا. الروح هى اللى لفت.

ضحكت ناهد بدورها وهى تمسح دموعها. يا وليه يا مجذوبه. يا عرة الدراويش عايزه تفهمينا إنك واصله.

ضحكت هند وقامت واقفة: دا إنت عمرك ماركعتيها.

أشارت لها أم جابر أن تصمت، ثم قالت: اسكتوا آنا سامعة صوت حد بينادى. اطلعوا بره.. اخرجوا.

تركتا هند وناهد أم جابر لأصواتها وخرافاتها. ووقفتا عند الباب صامتتين. أشارت لهما أن تغلقا الباب عليها. ففعلتا وخرجتا بسرعة.

جلست هند أمام النافذة، ليلة بكاملها، وناهد تجلس أمامها تقرأ قصار السور من المصحف الصغير الذى فى يدها، «إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون» ثم صدقت وقالت: هانعمل إيه يا هند لو أم جابر ماتت.

- أبداً هادفنها مع جابر وسمرة فى ترب الصدقة.

مسحت هند دموعها وهى تتذكر جميع الصور التى تمر على ذاكرتها الآن فى تتال مرعب. كأنه شريط يعيد نفسه من جديد. إلا صورة واحدة تظل تتردد على ذهنها ولا تنساها أبداً.

صبت كوباً كبيراً من الشاى، وأخذته بين يديها، وأخذت تحكى لناهد هذا المشهد الذى لا يبتعد عن ذاكرتها مهما حاولت.

ـ كانت أمى لا تعرف عنى شيئاً.

سوى أنها تعد لى الطعام، وتغسل لى الملابس. ويوم الجمعة.

ساعة صلاة الظهر.

جاء أبى فرحاً، حاملاً ملابس جديدة لى اشتراها من عمر أفندى (أوكازيون)..

وشنطة جلد طبيعى (من خان خليلى) وأخذ يحكى لأمى ما صنعه مع صديقه الذى كان يريد الشنطة لابنته. وكيف ظفر بها أبى.

كنت أذاكر دروسى وأتابع حوارهما، وأنا صامتة. وعندما نظرت إلى الشنطة وأمى تمسكها بين يديها فرحة. قلت: هى دى؟

غضب أبى.

نهرتنى أمى: سدك كدا كسفه الراجل.

ثم أمسكت فى يدها الجلباب الجديد. ونادتنى: طب قومى، وقيسى دى.

لأول مرة أذكر.

أنى منذ بلغت الثانية عشرة، لم أخلع ملابسى أمامها. رأيت وجهها يحمر، وتضمنى ضاحكة، دامعة: إيه دا؟

تصنعت الغباء وادعيت أنى لا أعرف ماذا تقصد، رفعتُ ذيل قميصى الأبيض، وجدت بقعتين من الدم: مش عارفه، إيه دا؟

قالت وهى تمسح دموعها: طب اجرى بسرعة. حطى إيدك فى شق الباب.

وقولى يا باب يابو خرمين،

ماتجنيش إلا يومين، اتنين.

بسرعة الحقى.

ومن يومها يا ناهد وماعدت أرى أبى.

قامت ناهد من مكانها وأخذت رأس هند بين أحضانها وهي تقرأ الفاتحة: والنبي يا بنت خالي ما تعيطي لحسن أنا خلاص أتهريت بكاء على الولية اللى جوه.

"وحانت لحظة الرحيل، فصعد إسماعيل إلى عربته الخاصة، وترك القطار ليشق الطريق وسط المزارع المترامية فى دلتا النيل وأخذ يتطلع إلى الأرض الخضراء تتخللها المساقي والطرق والقرى ويملأ عينيه من مناظر عساها تخفف عنه لوعة الفراق.. القطار ينهب الأرض قد جاشت على خاطره ذكريات الأيام الخوالي عندما كان يهبط العواصم الأوروبية، فترج المجتمعات وتلبس المدن أحسن حللها وتبدي أجمل زينتها، وتتهيأ لاستقبال العاهل الشرقي الذي يذكرهم بملوك ألف ليلة وليلة حيث ينثر عليهم القناطر المقنطرة من الذهب والفضة.

***

- الغجر.
هم صنف مزيف من المتشردين. يخفون حقيقتهم باتخاذهم عادات غير مألوفة، ويلطخون وجوههم وأبدانهم، ويتخذون لأنفسهم لغة خاصة بهم، ويرحلون هنا وهناك، يدعون معرفة الطالع وعلاج الأدواء، ويصيبون العامة بأذاهم، ويحتالون عليهم بسلبهم أموالهم، ويسرقون ما خف حمله وغلا ثمنه.
فى ذلك الوقت فإن جيلا من اللصوص ينتمون إلى حثالة من شعوب، تعيش على التخوم بين القرى والمدن.

ما إن أغلقت هند الكتاب حتى دخلت ناهد صارخة مستغيثة بها.

ناهد: يالهوى دوول يكلوا بقره بخراها.

ضحكت هند ووضعت الكتاب أمامها على المنضدة، ثم خلعت النظارة عن عينيها.

- مين يا بنت عمتي اللى يكلوا بقره.

ناهد: التتار. التتار يا حبيبتى، اللى جم يعزوا فى المفحوره أم جابر من شهر، وبلطوا فى الخط.

ضحكت هند وهى تمسح عينيها.

هند: دوول غلابه.

ناهد: غلابه مين؟

دوول لقوا متوا، ونومه. وأكل ومرعى وقلة صنعه.

أشعلت هند وابور السبرتو، ووضعت البراد على النار ثم قالت.

– تعالى نشرب شاى تعالى.

جلست ناهد أمامها وهى تعدل الإيشارب على رأسها.

ناهد: يابنت خالي مش كدا. يرحلوا بقى. حبة دم.

أمسكت هند الكتاب فى يديها وأخذت تواصل قراءتها بصوت مرتفع وقالت: كفاية ظلم مهما كان دوول بشر وأهل على ونور.

(شرعوا ينزحون عبر الولايات بزعامة ملك لهم، يبحثون عما يقيم أودهم بالسرقة والتلصص والانتهاب، وقراءة الطالع، ويلوكون حكايات مزيفة عن انتمائهم إلى مصر وأن آلهتهم أكرهتهم على النفى. ويدعون بوقاحة أنهم أمروا بالتكفير عن خطايا أسلافهم).

ناهد: أهل على وبس. وياريت يخدوه معاهم.

إنما نور أنتِ عارفه وأنا عارفه.

★★★

يا زارع الوداد إياك الوداد شجرة قل
ولا سواقي الوداد نضحت ولا مياها قل
أيام ننام ع الفراش وأيام ننام ع التل
وأيام بنلبس حرير
وأيام بنلبس فل
أنا رحت لشيخ عالم نشكي له

رمى الكتاب من يمينه والتفت وقال
الغندره بعد الدندره تنزل.

ما إن دخلت هند الحجرة التى بها الحريم ورأتهم جالسات متراصات يتحدثن.

والرجال يدخنون الجوزة فى الحجرة المجاورة والصوت يرتفع بالضجيج.

حتى تحرك الجميع وجاءوا لاستقبالها فرحين. ثم جلست بين النسوة تتسامر معهن. واقتربت منها امرأة شابة جميلة جداً وقالت: والنبى تحضرينا يا ست.

هند: خير.

أمسكت امرأة أكبر سناً من ذراع الفتاة وواصلت حديثها الذى انقطع بدخول هند.

الأم: عارفه أبوكى اللى عامل فيها غضنفر وع.. ع. وياما هنا وياما هناك.

من عمرك. مجاش يمتى.

البنت: يا قلبى.

الأم: كسر قلبك على قلبه. ريش على مافيش. نكدى وينكش على الشر بمنكاش.

البنت: يام (رومنى) ماله زى الفل.

ليش ماتكونى انتى العايبه.

- ماكدب جدك حين قال. كيف بنت ابنى تناسب البرمكى.

البنت: وى.. وى شنوب هذا الكلام. ما احنا نور ولا حلب. إحنا غجر. ما احنا غوازى.

الأم: كيف بنت بطنى تطمع فى اللى فى يد غيرها.

البنت: بدى أعيش.

الأم: بدك يقولوا بنت الشيخ طه كبير الغجر.. نوريه.. غازيه.

البنت: إيش.. إيش (يارومنيه) ما هذا.

بدك أطج أطج. ما أنى بدى اللى فى يد غيرى.

أني بدى أسأل ليش إحنا هيك. وليش هما هيك.

الأم: بيانو يا بنت الغجر. مورش كيف كان معك.

البنت: يام مايكفينا الشحاته والكافيه

وجرى السكك.. والخيش.

الأم: بده يصنع منك غازيه.

البنت: آه يا روميه.

الأم: بده يرجصك فى الموالد. هو يصير زمار. وانت تصيرى غازيه (رجاصه). بنت الشيخ طه تصير برمكيه. يا ويلى. يا ويلى..

وأخذت المرأة تلطم خديها وتنكش شعرها. آشارت هند إلى البنت أن تأتى إلى جوارها.

هند: يا..

البنت: نعم يا ست.

هند: ما اسمك.

البنت: اسمى الجازيه.

هند: منين؟

البنت: من طهواج.

هند: ومن هذه؟ تشير نحو المرأة الباكية.

البنت: دى أمى.

ما إن سمعت المرأة حديث ابنتها مع هند حتى قامت عليها ضرباً وسباً، وأخذت تجرجرها من شعرها على الأرض.

الأم: يا جلابة العار للغجر كلاتهم.

البنت: يام. مابدى أحاكى معاك. أنا بدى أجولك ع اللى واجعنى

ومطهجني.

الأم: اللي وجعك واجعني. بنت الأنجاس تصير من غير لباس.

البنت: أنا ما بدي أشوفك ولا أسمعك. مابدي أنظر وجهك يا روميه.

بدي أجيب الجاز وأدلجه ع الأنجاس ولد الأنجاس.

وهنا تجرى البنت إلى الخارج، وأمها وراءها وجميع من بالمنزل يصرخون ويولولون، صغار وكبار. وخرج الرجال خلفهم جميعاً.

اليوم تحققت ناهد من مشاعرها تجاه أبى الحجاج. ثلاثة أيام كاملة. أغلقت الباب عليها. لا نوم. لا طعام. لا أطفال. ولا المدرسة. حتى أولادها (محمد ومحمود) ذهبا عند هند.

وكان أبو الحجاج يمضى لها فى دفتر الحضور والانصراف. دون تعليق. دون سؤال. وبعد ثلاثة أيام عادت وقبلت الزواج منه.

وكانت هند تتندر بهذا الموقف وتضحك: من أول قرصة ودن يا ناهد تتجوزى.

ثم غضبت منها وتركتها ولم تذهب معهم إلى الأقصر لأتمام مراسم الزواج.

فقط أرسلت برقية تهنئة للعروسين. والدعاء لهما بحياة سعيدة.

فهى تعرف ناهد جيداً. شخصية متقلبة رغم طيبتها، فهى أقرب للإثارة والمزاجية من الهدوء والاعتدال. وتتأثر بسرعة إذا ضغط عليها أحد بقوة.

كانت هند تضحك عليها وتتهامها بالتسرع وخفة العقل. وأحياناً تناديها: يا أمعه.

فتغضب ناهد وتثور: بكره نشوف يا هند.

مين اللى خفيف ومالوش رأى.

"وعندما جلس الخديو عباس الثاني - ابن توفيق - على عرش مصر ١٨٩٢ ذهب لزيارة جده في منفاه. وجدد طلب إسماعيل للعودة إلى مصر.
ولكن تصرف عباس لم يكن أفضل من تصرف أبيه وتجاهل مطلب جده..
وبينما كان الخديو عباس يشهد حفلا بدار الأوبرا، تلقى برقية تنذر بسوء حال جده إسماعيل. استدعى أعمامه واستشارهم، واستقر الرأي على أن يسافر الأمير فؤاد والأمير حلمي ليكونا بجانب والدهما، ريثما يسعى الخديو عباس العودة إلى مصر.
وأجمع مجلس الوزراء على رفض عودة إسماعيل خشية أن يجر ذلك أزمة سياسية.
في البداية عارضهم الخديو عباس بشدة، ولكنه اضطر إلى النزول على رأيهم.

مسحت هند دمعة أخيرة نزلت على خدها حين قرأت هذا المقطع وعن حالة إسماعيل الذي كانت تحبه رغم ما أحدثه وجلبه لمصر من آمال وآلام وحزن.

***

ساعة كاملة فى الليل البارد..
من ليالى يناير الطويلة. وقفها أبو الحجاج أم باب حجرة أم عسلية فى شارع وابور الطحين. وابنتها فاطمة تغلق الباب من الداخل. وهو يهبد بقبضتيه على الباب كى تفتح ويأخذ ملابسه ويرحل. كانت لديه لوثة، أوهوس جنسى. معتقداً أنه سيصل فى يوم ما إلى بعض التجليات مثل شيخه (الشعرانى) واقتنع بقراءات للشيخ عن الجنس.
هدأت الخبطات. وصار يناديها بصوت خفيض.

- يا فاطنه.. يا أم عسليه.

الهدوم يا جماعة.. الدنيا برد. والنهار قرب يطلع.

أخذ يتوسل. إلى أن مدت له أم عسلية يدها من فتحة الباب. وأخرجت له الفانلة بالعافية. وصوت ابنتها بالداخل تهددها: والله أصوت. وأعمل زى ما عملت مع رجب وهانم.

عندما سمع هذا التهديد. لبس الفانلة وصار يجرى مبتعداً، وهو بين لحظة وأخرى يلتقط أنفاسه، وينظر وراءه. وظن أو اعتقد أن رآه بعض المصلين فى الجامع، وبائع اللبن، وبائع الجرائد، صرخ منادياً: يا شيخى سامحنى واحمينى. ما هى إلا لحظات حتى قامت عاصفة خلعت تنده من أحد المحال وبسطتها مثل البساط وحملته فوقها. وعندما وصل إلى بيته قاطعاً المسافة الطويلة من شارع وابور الطحين إلى شارع السكة الجديدة. دخل ملقيا نفسه على الأرض باكياً. ثم أخضر الشبشب الملقى إلى جواره وأخذ يضرب نفسه ضرباً مبرحاً. ومقرراً عدم العودة إلى ذلك شرط أن تقبل ناهد الزواج منه.

وسوف يحاول مهما كلفه الأمر.. لو طلبت منه كتابة البيت ومصنع الحلاوة الذى يملكه. ثم قام ودخل الحمام، وأخذ يتقئ ما فى جوفه من الكبدة المحمرة بالبصل والثوم الذى جهزته له أم عسلية وشراب (الجن) الذى أحضره. ثم ألقى بالفانلة وأحضر لترا من الجاز وسكبه عليها وأشعل فيها النار. وفى الصباح ذهب إلى المدرسة.. وكانت العيون تتفحصه فى صمت.

وسمع بعض ضحكات التلاميذ وهم ينادونه (الورور وصل) نادى بصوت مرتفع: أفتح يا كركر. جاء يجرى وجحظت عينا كركر الفراش وهو يفتح له الباب دون أن يرى حزمتى الفجل فى يديه كالعادة. وترك باب المدرسة مفتوحا وكعادته فى التاسعة

تماماً. دخل عبده عسلية حاملاً صينية الشاى باللبن، ووضع الكوب على المكتب، وقبل أن ينصرف، وضع لفة كبيرة كانت فى يده وقال: الأمانة. ثم انصرف مسرعاً.

أغلق أبو الحجاج الباب، وفتح اللفة وجد بها ملابسه والبطاقة وسلسلة المفاتيح. دسها فى درج المكتب. ورأى صورة شيخه تظهر وتختفى أمام عينيه. فأقسم فى سره ألا يعود ثانية.

وأخذ يستغفر الله العظيم.

ثم قال: اللهم أخزيك يا شيطان.

★★★

"عاني الخديو إسماعيل من عنت وقسوه وهو يعاني سكرات الموت"
حتى أن الخديو عباس ساءه موقف مجلس الوزراء.
فبعث بسر دار الجيش (محمد راتب باشا) إلى الإستانة، ليكرر الرجاء فى عودة إسماعيل إلى مصر رفقا بصحته. فلم يظفر بالقبول.
وفى ١٧ يناير ١٨٨٥ تنبه إسماعيل من إغماء طويل..
واستدعى نجليه فؤاد وحلمي وقال: إذ مت فأدفنوني فى مصر، مقر جدي وأبي، وموطن آلامي وأحلامي، الذى عشت له، وتمنيت سعادته، وحرم على العودة إليه.

فرغت الحياة من حولك يا هند!

أسبوعاً كاملاً مر على زواج ناهد وأبى الحجاج، شهراً كاملاً مر على فراق على ونور، شهوراً عديدة مرت على وفاة أم جابر وحلول أم عسلية مكانها.

كانت هند تقف فى أول القصر عند الباب تشعر أن الأرض تميد بها.

تقف وسط الصالة الكبيرة، تشعر أن الأرض تتمرجح تحت قدميها، وهى تقب وتغطس، كأنها وسط أمواج هادرة، وتكاد أن تغرق. تصرخ، لا يخرج صوتها. تبكى لا تنزل الدموع. يملأها حزناً كبيراً وعميقاً، تدخل حجرة رباب مسرعة تحيط نفسها بصور الموتى والماضى والزكريات. إنها لا تصدق أن الحياة قد فرغت من حولها تماماً (الأصوات الضحكات — الحركة — المعارك) الحياة خاوية تماماً، وتافهة لدرجة لا تصدق. ولأول مرة أشعلت هند علبة سجائر ، وطلبت من أم عسلية شراء علبة أخرى وعندما اعترضت: صحتك ياست هند. نهرتها هند بعنف شديد وغضب.

– وأنتى مالك يا أم العجل. هى النصيحة نقصاكى، غورى.

شوفى ابنك الزفت فين يجيب علبة زفت خلينى أشربها.

شربت العلبة الأخرى، وأخذت ترنو من النافذة التى كانت رباب تنزل منها شعرها الطويل ليتسلق عليه العشاق.

احبه قلبي والحبة شافعي ..

لديكم إذا شئتم بها اتصل الحبل

عسى عطفه منكم على بنظرة ..

فقد تعبت بينى وبينكم الرسل

مسحت دموعها وأخذت تدنو للصور التي تظهر أمامها.

ورأت كأن ضباباً كثيفاً يحيط بالنافذة، وعن بعد يقف حصنان جميلان الأول أبيض والثانى أحمر والصور تتابع (رباب وجعفر) ثم (هند وحمزة) ثم (على ونور) هكذا على التوالى يركبون الأحصنة التى تتكاثر أمام عينيها ويطيرون. قامت من مكانها فزعة. حاولت مد يديها نحوهم ولكنهم تركوها وحيدة حزينة.

وعندما أطلت من النافذة بجسدها كاملاً، رأت عبده العجل أسفل النافذة، يحاول تسلقها، وكأنه ينتظر خروجها وهو ممتطياً العجل وفى يده السكين ليذبحه، كما حكى جابر بعد حفلة الزار.

وقالت أم جابر أنها رأت عبده عسلية أسفل التعريشة الكبيرة التى خلف حجرة رباب ممتطياً عجلاً كبيراً ويجز رأسه بالسكين ويفصلها عن جسده، وخرج به إلى الشارع. ومن يومها لقب بعبده العجل بدلاً من عبده عسلية. وكان يصيح بعلو صوته: هذه رقبة التيس أبى الحجاج، هذه رقبته.

الآن هذه الصيحات والخرافات والحكايات تتوالى على رأسك بعد أن فرغت الحياة من حولك يا هند. استعاذة هند بالله من الشيطان، ووقفت ترنو إلى الشمس وهى تشق السحاب وتخرج مشرقة عفية. نادت على أم عسلية وقالت.

– انتى يا أم الزفت. فين الشاى يا أم الخرفان.

أسرعت أم عسلية ووقفت بين يديها.

– ياست صحتك، شاى على ريق النوم.

غضبت هند فهى لا تحب من يعارضها.

– ياام العجل هاتى الشاى. وكفياكى نصايح.

وأشعلت السيجارة من العلبة. وأخذت تنظر إلى الشمس وهى تنهض من غفوتها الطويلة.

- يا سيدي أريد أن أدرس علم المنطق على يديك.

- يا بنتي قد صار الفقه ثقيلا على قلبي.

فكيف بعلم.. وقد أفتى بعض العلماء بتحريم الاشتغال به؟

- يا مولانا إن العلم عبادة.

- صحيح. ولكن ما وجدنا فى العلم رقة قلب بخلاف الذكر والاستغفار.. مع أن فضل العلم على غيره مشروط بحصول

ما إن تركت هند عملها.. بتقديم أستقالتها. والتفرغ لمشروعها، بتحويل الدور الأرضى من القصر مع جزء من الحديقة إلى بيت للمسنين والعجزة وأطفال الشوارع.. وكانت أول النزلاء (أم عبده عسلية)، وأولاد ابنتها فاطمة الشرشوحة

وفى يوم دخلت عليها ناهد.. بعد غياب دام أكثر من ثلاثة شهور وثلاث سنين، بعد زواجها من أبى الحجاج. والمقاطعة النهائية بينهما. دخلت عليها ناهد غير مصدقة.

- معقول يابنت خالي اللى سمعته.

- خير يا ناهد.

جلست ناهد تلتقط أنفاسها المتلاحقة.

- سمعت إن أم عسلية عندك.

- نعم.

- بعد اللى حصل.

نظرت إليها هند نظرة ثاقبة. جعلت ناهد تخفض عينيها. وتصمت. كانت تقوم هند، بصرف رواتب شهرية لبعض الأسر الفقيرة. وتقديم الوجبات السريعة والجاهزة لأطفال الشوارع وبعض عمال الورش.

وإمعاناً فى رسم الصورة الجديدة لها. كانت تقدم الفائض من الطعام للكلاب والقطط الضالة ليلاً. سمعت ناهد من البعض (وهذا قليل، ولم يراها سوى واحداً مشكوك فى رأيه وربما يكون أختلط عليه الأمر) أنه رأها كل يوم فى الثامنة مساءً تطوف حول جامع السلطان أبى العلاء.

وواحدة أخرى رأتها تأيداً للرأى السابق ومشكوك أيضاً فى صحة هذا القول.

أنها رأتها فى السادسة صباحاً تخرج من شارع الشيخ على وتطوف حول مبنى وزارة الخارجية فجامع السلطان أبى العلاء، ثم تقوم بتوزيع الحلوى التى تشتريها من مصنع أبى الحجاج وتعطيها للأطفال مع علب ألبان من العلب الجاهزة.

وإمعاناً فى رسم الصورة.. قالت أنها كانت ترتدى عمة خضراء، وتعلق فى رقبتها بعض السبح الكبيرة، وفى يدها مبخرة تقوم بتبخير مقام السلطان بعد تقبيله عدة مرات. وأحياناً يكون فى صحبتها الشيخ عليش (وهذا مشكوك فيه. لأن الشيخ عليش يختفى ولا يظهر إلا فى الليلة الكبيرة لمولد السلطان) ولكنه قيل أيضاً أنها شوهدت مع بعض الغجر المتبقين من أقرباء أم جابر والذين بقوا ولم يرحلوا وقامت بتنظيف الإسطبل لهم وإيواءهم فيه. انزعجت ناهد من تلك الصورة التى رسمها أبو الحجاج لها. وساهم معه بعض الناس. ثم فتحت ناهد فمها بعد صمت طويل وقالت:

– مبقاش إلا المجاذيب اللى تدورى معاهم ياهند.

نظرت هند إليها، بدون اهتمام، ثم أشارت لها أن تصمت.

لكن ناهد ظلت تنظر إليها مندهشة للصورة الجديدة. هند تمسك فى يدها مسبحة كبيرة وتسبح عليها. وانتبهت أن هناك صوت لشيخ يقرأ بعض الأدعية والتواشيح الدينية. ورائحة بخور تملأ المكان. مدت ناهد يدها، وأغلقت الكاسيت غير مصدقة. ثم مدت يدها وربتت على يد هند.

– مالك يابنت خالى؟ إيه اللى عمل فيكى كدا؟

أنتهت هند من تسبيحتها. ثم مدت يدها ووضعت بعض البخور فى المبخرة ونادت.

– القرفه يا أم عسلية.

ثم اعتدلت فى جلستها، ونظرت تجاه ناهد المنزعجة لوجود أم عسلية أيضاً.

- مالى.. يابنت عمتى هما المجاذيب سبه.

فتحت ناهد فمها لتصرخ. ولكنها تماسكت قليلاً وقالت بهدوء.

- ست زيك ربنا أعطاها الجاه والمال والجمال. تعمل كدا.

تركت هند المسبحة من يدها. العمل الصالح باق وأفضل. الباقيات الصالحات ماذا يريد الإنسان من الدنيا؟ اللقمة التي تسد الرمق، والرقعة التى تستر العورة.

نزلت دموع قليلة من عين ناهد. ثم مسحتها بسرعة: الاستغلال يا هند.

الناس بتستغل قلبك الطيب. ويدك الممدودة بالخير.

- الله أمرنا بذلك.

- الله لم يأمرنا بالسفه.

- سامحك الله يا ابنته عمتى.

مالت ناهد على يد هند تقبلها: والله ياهند ماقصدى.

ولكن عبده عسلية قالب الدنيا على أمه. وأبو الحجاج لمح لى أنه هايقتلها هى واللى يتشدد لها.

- خليها على الله.

قامت هند واقفة وهى تسير بعض الخطوات تجاه الباب. وفتحت حجرة رباب، وقبل أن تدخل نظرت تجاه ناهد وقالت.

- خليها على الله.

ثم دخلت الحجرة وأغلقت الباب خلفها.

«إن لله عبادا اختارهم من خلقه واصطفاهم لنفسه، وانتخبهم لسره، وأطلعهم على لطيف حكمته ومخزون علمه، أفتاهم

عن أوصى فهم الناشئة عن طبائعهم، ولم يردهم إلى علومهم المستخرجة بحكم عقولهم، ولم يحوجهم إلى المرسوم من حكمة الحكماء، بل كان هو لسانهم الذي ينطقون به، وبصرهم الذي به يبصرون، وأسماعهم التي بها يسمعون، وأيديهم التي بها يبطشون، وقلوبهم التي بها يتفكرون».

وقفت ناهد قليلاً مندهشة، مما رأته حولها وما سمعته من أخبار عن ذهول هند، وانجذابها للمجاذيب، وأنها تصبحهم في الموالد وزيارة أولياء الله الصالحين.

فتحت الباب وخرجت مندفعة.

ثم نزلت السلم فى تراخى وهى ترى أم عسلية قادمة تحمل كوباً كبيراً من القرفة وتنادى.

- القرفة ياست.

".. أعد الخديو عباس قبرا فخما لجده إسماعيل فى مسجد الرفاعي"

وفى يوم ٥ مارس ١٨٩٥ لفظ النفس الأخير. فصعدت روحه إلى السماء تشكو عالم الأحياء الذى لا يرحم شيخا فى شيخوخته، ولا مريضا فى مرضه..

مات إسماعيل بعد ما قضى ستة عشر عاما فى منفاه..

وحلت المشكلات، وكذلك الصعاب التى تخاذلت أمامها مساعي العظماء.

فما كان يذيع نعيه فى بلاد حتى سمح السلطان بنقل جثمانه إلى مصر.

عاد فى موكب حافل. أشد إيلاما من موكب خروجه من وطنه.

هذا الخروج الذى طوى أخر صفحة من حكمه، كما طوى الموت آخر صفحة من حياته.

الأيام تذوب وسط الأحباء. والسعادة لا تقدر إلا حين فقدها.
هكذا شعرت هند بفقد الأحباء والأشياء والسعادة. سافرت ناهد مع أبى الحجاج وتركتها.

ورحلت أم جابر وفرغ البيت بعد موتها. كانت تملأه بالضحكات والنكات والأغانى والمشاغبات الصغيرة. وأخذ الشيخ طه (شيخ الغجر) نور وعلى معه ورحل. ووعد هند بأن يزورها الأولاد كلما شاء المولى. ولم تستطع هند أن تقنعه بترك نور لأنها سوف تكتب ميراثها مناصفة بين على ونور.

كل هذه الأطماع لم تثنى الشيخ العجوز عن موقفه وقال لها: جحا أولى بلحم توره ياست.

وتاهت هند وسط القصر الفسيح البارد، الخالى من الدفء والأنفاس. وخرجت تتمشى خوفاً من أن ينهار القصر على رأسها لأنه قديم. وكما كانت تقول لها أم جابر: دا من أيام الخديو إسماعيل ياست. الخديو اللى حفر القنال.

تضحك هند: يا وليه يا خرفانه انتى توعى على فحت البحر.

ضعفت هند، وبدأ نظرها فى الذهاب ببطء وهدوء ينساب من عينيها مثل الماء من بين أصابعها.

كانت عندما تقف فى الصالة الكبيرة تشعر أن جميع الحجرات تسقط لأسفل، والحوائط تكاد تنهار عليها. فتجرى مسرعة، تملأ القصر بالصرخات والنداءات ولكن..؟! الكتب هي الباقية لها في لحظات الضيق والأزمات وتستعيد الماضي من خلالها، وصوت حمزة يرن في أذنيها.

- التاريخ يا هند التاريخ هو الباقي دائما.

"اجتمع الشيوخ، العظماء فى الأزهر.

- ما قولكم هل يجوز تعلم المسلمين العلوم الرياضية مثل الهندسة والحساب والطبيعيات.
- يجوز تعلم هذه العلوم. وضرورة العلم بما تتوقف عليه مصلحة دينية، أو دنيوية.
- ..ولكن تحرم الاشتغال ببعضها إذا كان على طريقة الفلاسفة.
- موافقون..
ولكن يحرم التأويل والتفكير وإيثار الظاهر على الباطن - لغير أولياء الله - ..
أدى ذلك إلى ركود الحياة العقلية. تحرم تأويل الآيات والأحاديث.
لقد انتصر الحزب السني وقضى بتعصبه على حرية العقل، وعمل جادا على خنق الحرية الفكرية.

أغلقت هند آخر صفحة في الكتاب.

اشترت هند فرسة وأسمتها رباب، وفرس اسمته حمزة، وكانت تدللهما كثيراً وتظل بالساعات تنظر إليهما .

وحاولت مراراً وتكراراً أقناع الشيخ طه بإرسال على ونور، ولكنه أرسل لها صبياً لرعاية الأحصنة لأنها بدأت تشترى المزيد .فأشترت الفرسة نور، والفرس علي. وقالت وهى تضحك وتوصى المراسيل ربما تشترى حصاناً قوياً وتسميه جابر وفرسه وتسميها سمرة.

ولكن كل هذه الأفكار ذهبت هباءً فى الخطابات المتبادلة بينها وبين ناهد .

كانت تحدثها عن ضياع الماضى بكل أمجاده. وناهد تضحك داخل شريط الكاسيت وتقول : يا هند يا بنت جعفر .الماضى مضى بخيره وشره. ولن تعيده الخيول.

أبحثى عن شيء يخصك ياهند . يشغلك بدلاً من الأحصنة.

لم تكذب هند تخمين ناهد . وقررت عمل القصر دار للمسنين

والأيتام.

وامتلأت الحجرات، ونظفت الحديقة، وانتشرت فيها الزهور والرياحين.

وأرسل لها الشيخ طه بنتاً جميلة للعمل. ووعدها بزيارة قريبة ومعه على ونور.

واحتلت هند حجرة رباب. حجرة الأموات كما كانت تسميها، وطلبت من صانع البراويز عمل صورة كبيرة لها كى تضعها جوار صور الملائكة. وكذلك أحضرت صورة كبيرة لأمها من البيت القديم ووضعتها إلى جوارهم.

وكل يوم تقف أمام الصور، تقرأ الفاتحة وقصار السور على روح الملائكة.

ورسمت على الحائط رسم تخطيطى لمكان صورة نور فى المستقبل.

وفى يوم أحضر لها المصوراتى صورة أم جابر (صورة كبيرة بالألوان) قبلتها ووضعتها فى نهاية الصف.

ووقفت طويلاً تسرد حكايات الراحلين، ثم تبسمت عندما سمعت مشاغبات العجائز وهن يتحلقن حول أحواض الورد والياسمين. كل منهن تريد أن تسقى الورد.

وصعدت أم عسلية وهى تلهث: ألحقى ياست هند. العواجيز هايكلو بعض.

وضعت هند الشال حول كتفيها، ونزلت معها، ثم أمسكت الخرطوم بيديها المرتعشتين وقالت: كل واحدة تسقى يوم.

".. ولو أن الحياة العقلية فى مصر كانت ناضجة ! ما استطاع هؤلاء الأدعياء العيش فى رحابها، والتنفس من نسيمها على أن

ذلك لا يمنع من القول بأن المتصوفة قد استغلوا الركود الجاثم على صدر الأمة. وعملوا على تقويته بتعاليهم. فساهموا بنصيب وافر من الانحلال الذى اصاب العقل المصرى.. إبان العصر العثمانى.ولا سيما إذا عرفنا أن مصر كانت زعيمة العالم الإسلامى كله أيام سلاطين المماليك.

أغلقت هند الكتاب الذى فى يدها.

ثم جلست على كرسى بعيداً عن الضوضاء، وراحت تتطلع إلى الأفق وهى غير مصدقة أن هذه نهايتها. وحيدة على كرسى من القش أمام الأسطبل تتأمل الخيول فى صمت.وعندما أتى السائس المكلف برعياتهم وحدثها بود: ياست.. هو فيه حد بيربى خيول فى الزمن ده؟.

إحبكت الشال حول كتفيها جيداً، ثم أخذت قطع السكر، وراحت تطعمهم فى صمت وهى تملس عليهم بحنو ودفء، وهى تردد: للتاريخ يا ابنى.. للتاريخ.

" ليت شعرى هل دروا
أي قلب ملكوا
وفؤادى هل درى
أي شعب سلكوا
أتداهم سلموا
أم تراهم هلكوا
حار أرباب الهوى
فى الهوى وارتبكوا"

ابن عربى

***

خرجت هند من خلوتها بعد غياب دام أيام طويلة، وبعد زيارة ناهد انطلقت بمفردها إلى الشارع وهي تحاول السيطرة على دموعها المنهمرة والمسبحة في يدها.

وأم عسلية تجري وراءها وهي تناديها: يا ست هند، على فين يا ست.

أخذت هند تجري كالمجذوبة، أو كأن هاتف يناديها، الشوارع تغيرت، والزحام يحيطها من كل جانب، وكانت كلما تسير خطوة تتعثر خطوات، وأصرت أن تصل إلى السيدة زينب مشيا على قدميها، ودخلت إلى الضريح منهارة، وفي خشوع وصمت، صلت ركعتين تحية المسجد، ثم جلست بجوار العمود صامتة تستعيد الذكريات الماضية، وتسرح بخيالها حيث السنوات البعيدة، عندما جاءت مع حمزة وهي ما زالت طفلة في الثانية عشرة، ليشتري لها حذءا جديدا.

دخلت أم عسلية وهي تلتقط أنفاسها، ثم ألقت بنفسها على الأرض وأخذت تبكي بحرقة وألم.

- كده يا ست هند، تجريني المسافة دي كلها وراكي، وأنا مش ملاحقة، وأنت طايرة طيران.

كأنك مركبه جناحات وطايره.

تبسمت هند، ومدت يدها على رأس أم عسلية، وأخذت تملس عليها بحنان وود.

وهي تقرأ الفاتحة، ثم قالت لها بصوت هامس ورقيق: قومي يا أم عسليه أتوضي وصلي ركعتين.

قومي بارك الله فيكي.

ألقت أم عسليه بنفسها على يد هند وأخذت تقبلها وهي تبكي بكاء مريرا وأنفاسها تتقطع.

- تفتكري يا ستنا اللي زي ربنا يسامحها.

- إن الله غفور رحيم.

ويقول سبحانه: من تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا، ومن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا، ومن أتاني ماشينا أتيت إليه هرولا.

قامت أم عسلية وتوضأت، ثم أخذت تصلي وهي تبكي وتمسح دموعها، وهند مازالت مكانها تسبح على المسبحة الكبيرة التي في يدها.

وبعد قليل نادتها أم عسلية: يا ست هند يا ست.

أنا جعانة، هو إحنا هانفضل كدا، خرجت هند من المسجد، وأم عسلية في يدها، ثم دخلتا محلا للأكل.

تشاغلت عينا هند بمتابعة النقش البارز في اللوحة المعلقة عاليا. وطنين الأغاني يأتي إليها من الشارع، وصوت الباعة الجائلين من آن لآخر يخرجها من غفوتها المتشاغلة بالنظر إلى السقف.

كانت اللوحة الكبيرة عبارة عن سوق كبير للعامة في زمن القاهرة القديمة. ربما يكون في العهد الفاطمي أو المملوكي، لم

يتم تحديد هوية اللوحة بعد.

فقط تشاغلت عينايها بمتابعة الهدوء والسكينة والبضائع المتراصة بشكل ساذج على قارعة الطريق، وقليل من المارة يتوافدون.

وحدها تشق طرفي الثوب إلى نصفين، وتنتابها حالة من اليأس لم تعتادها من قبل، ولكنها رأت طرفي الثوب تتباعدان، تتصاعدان، إلى أعلى ترفان صوب اللوحة، صوب الفارس، صوب الشارع، كل ما تخيلته هو أنها تجول في اللوحة مزهوة. زوجان من الأحصنة المجنحة ترتديان شقي الثوب وترفان.

أخذت هند تصرخ خارجة من اللوحة.

كانت الخلفية غير الواضحة لمسجد كبير ومشربيات جميلة مشغولة بحنكة صانع دقيق.

الخشب يحمل رائحة الأيام الماضية، فتطير سعادة لزمن سابق،؟؟؟ تخرج منها حكايات المارة، الصانع ، الدراويش، تحكي الأفاريز تاريخا كان يتحرك ويتلون ويصبغ الأيام بصبغته.

مملوك فوق جواده يمر من بين مقتنيات اللوحة، وأمامه يجري رجلان يفسحان له الطريق سقطت رأس المملوك.

تدحرجت تحت أقدام الجميلة الخارجة من حمام قديم، فبان وجهها جميلا صافيا.

حياها الفارس، وتمهل مليا، وهي تلتقط اليشمك والخبرة وتعيد وضعهما من جديد.

الأيام والأزقة والمارة ورأس المملوك وتحية الفارس وبسمة الجميلة.

كل هذا لم يبعد صوت المارة.

والموسيقى الداخلية المنبعثة من المحل تمنع تأملها للوحة.

تبدلت الموسيقى بأخرى.
دارت عينا هند المتأملة اللوحة تجاه الفارس ومدت يدها تمسك المهماز.
تركها وسار عبر الأزقة.
(هنا كانت ترتكز فتاة على حافة السور خارجة من زمنها، ومن أيامها.
والآن تمر محملة بعطر رخيص وسنوات بعيدة إنها اللحظة.
وتمر.
تاركة السور والشارع، ونهداها عالقان على الحافة.
ومرت.
هي من المحل، والأخرى من اللوحة.
هي من الشارع، والأخرى من زمن بعيد.
هي من حافة السور، والأخرى من الحمام.
هي من الزمن الآني، والأخرى من العصر الفاطمي أو المملوكي.
إنها القاهرة القديمة.
مبانيها، ضواحيها، أفاريز الجامع، خشب المشربيات.
المملوك والفارس والفتاة.
ورائحة بخور المر في يد الدرويش يثير في اللوحة دخانه، طاقاته، خرفاته، خرقه البالية..)
وتذوب اللحظات البطيئة في ثلجية مفرطة بين عين الواقفة المتأملة،وعين الجميلة الباسمة في اللوحة العالية المعلقة من زمن بعيد، بعيد وقديم.
إنها الآن ترتبك.
تريد أن تحدد ملامحها. بعد أن زهقت من الفوضى والارتجال،

تريد أن توضح ما هية الأشياء تريد أن تقبض على اللذة الهاربة، والمتعة الأبدية.

إنها الآن.

أصبحت تقرأ مثل تلميذات المدارس، تضع خطوطا تحت الكلمات، والجمل المهمة المدهشة والمثيرة بين قوسين، ولكن ما يجرحها الآن هو المرأة الجميلة الباسمة للفارس، هل ما زالت تتحرك؟ ترفع اليشمك ؟؟؟؟؟ ، تبتسم، تلملم طرفي الثوب من قاذورات الطريق.

ماذا لو قابلت هند هذه المرأة مرة أخرى؟

هل لها نفس الملامح؟ أخذت هند تتمعن في اللوحة. وأم عسلية ما زالت تأكل بشراهة واستمتاع طبق الكوارع الذي أمامها.

سألت هند نفسها: الجمال! البسمة! الحب! الحياة! أشياء أريد معرفتها أكثر من ذلك.

أتمنى أن أرى ما خلف المشربيات، اسمع صوت المغنيات منبعثا من الحريم، ورائحة البخور المر المتطاير عبر اللوحة، وتطويح الدرويش لمبخرته بذراعه، كيف رآها الفارس عندما رأته؟

رغم أنها محملة بأنثي خارج اللوحة.

وموسيقى خارج السياق، وصوت الباعة الجائلين. إلا أنها تبحث بشكل واسع وعميق ومفرط الدهشة عن صاحبة الثوب.

ستظل هند محملة بعبء البحث، والمعرفة، وإلحاح الذاكرة، وتاريخ اللوحة.

ولكن كيف ترى إنسانية البسمة؟

والوقفة وارتباك اللحظة، والتباس البوح؟ وقفت مشدود: في حوار مفعم بالقلق.

(يا صاحبة الطقوس.

والمفجر الأساسي للمشهد، أذكر لطمة أمي على وجهي لحظة قررنا أنا وحامد النوبي أن نعيش الليلة الأولى (عادي) دون اشتعال.

يا سيدة: الطقوس.

افتحي ذاتك.

اللوحة ملء عيني، ما هي رغبات اللحظة؟ الفارس كان لطيفا متفهما، حاول تدريب رغاباته، ترك لحظة العشق البدائي دون اشتعال!

يا سيدة الزمن البعيد.

إني أصغى إليك، فتحدثي، واذكري لي مبعث آلمك وسعادتك؟).

أخذت هند تغلق سوستة الجاكت، وتستعد للخروج، وأم عسلية تمسح يديها.

- ياه الدنيا برد قوي يا ست.

على باب المحل، فردت هند أصابع يديها تستدفئ بأشعة الشمس.

الصمت مازال يحيط بالمارة، باللوحة، بالجالسين في هدوء المكان.

لم تجئ إلى هنا منذ أعوام طويلة، منذ جاءت مع حمزة وهي طفلة صغيرة كي يشتري لها حذاء جميلا.

كم كان مريحا بالنسبة لها الخروج ببطء من الماضي. والإتيان إلى محل (الركيب) لأكل السمين والكوارع كما طلبت أم عسلية منها.

- والنبي يا ست نفسي فيها.

وامشي في شوارع مصر.

إنها الدهشة الأولى.

أخذت أم عسلية كطفلة صغيرة لكل ما هو جديد ومثير.

التقطت سريعا كلمات المارة، حواراتهم، ضحكاتهم طريقة ملابسهم، وسيرهم في الطريق.

وكلما رأت شيئا غريبا أخذت تعلق عليه بصوت مرتفع.

كم كان مريحا لهند الخروج من اللوحة القديمة ومشاهدة النيل والشمس الغاربة.

كل ذلك يثير فيها أحداث الماضي وحواديته.

تحدثت في همس: أريد صورة: كبيرة لي الآن، كي أضعها بجوار صور الملائكة، وأعلقها عاليا. صور كبيرة، دون فارس، دون مملوك، دون الجميلة، واليشمك والخبرة، دون الدرويش ودخانه ومبخرته، ورائحة بخور المر.

صورة للقاهرة وأنا بداخلها. ولكن كيف؟

طارت هند تجري في الشوارع، وأم عسلية وراءها تناديها: يا ست هند يا ست.

كانت الفوضى تملأ الشوارع وهند مازالت تجري بعيدا، بعيدا دون توقف.

تمت 23 **يوليو سنة** 2005

- البناء الاجتماعى والثقافة فى مجتمع الغجر.
(دار المعارف) د. نبيل صبحى حنا.
- الغجر: تأليف: سير أنجوس فريزر ترجمة: عُبادة كُحيلة (٢٥٨) المشروع القومى للترجمة.
- الموالد فى مصر - تأليف: ج. و. مكفرسون ترجمة وتحقيق: د. عبد الوهاب بكر - مكتبة الأسرة سنة ١٩٩٩.
- الغجر: تأليف: جان بول كليبير ترجمة: لطفى الخورى - دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد سنة ١٩٨٦.
- كتب عن الصوفية (الحلاج - سمنون المحب)

- حكايات الليل (قصص مشتركة) سنة ١٩٨٤.
- تلك القاهرة (ديوان قصص) سنة ١٩٩٠.
- أشياء صغيرة وأليفة (قصص) أصوات أدبية سنة ١٩٩٦.
- بنات فى بنات (قصص) كتابات جديدة سنة ٢٠٠٠.
- من حلاوة الروح (رواية بالعامية) رؤى سنة ٢٠٠١.
- ريح السموم (رواية) مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠٣.
- أغانى وألعاب شعبية للأطفال — سلسلة دراسات شعبية سنة ٢٠٠٤.
- من حلاوة الروح (رواية) طبعة ثانية دار سنابل سنة ٢٠٠٥.
- سفينة الحلوى (قصص للأطفال) كتاب قطر الندى سنة ٢٠٠٦.

- سيدة المكان (قصص)
- حتى تمتلئ بالموسيقى (قصص)
- داية وماشطه (دراسة) نشرت بمجلة الفنون الشعبية٢٠٠٦ .
- صورة المرأة فى المثل الشعبى (دراسة).
- أغانى أفراح (جمع ميدانى).
- فى الليل لما خلى (رواية).
- قال لها يا إنانا (رواية)
- فى المرة القادمة (قصص)
- المجروحة بالصمت (قصص)





- من مواليد القاهرة
- تعمل مدرسة بإدارة غرب القاهرة
- ليسانس تربية عين شمس
- دراسات عليا أكاديمية الفنون قسم تذوق فني
- دراسات عليا جامعة عين شمس
ضمان وجودة التعليم

- عضو اتحاد كتاب مصر
- عضو آتيليه القاهرة
- معتمدة بالإذاعة المصرية
- محاضر مركزي بالهيئة العامة لقصور الثقافة
- كرمت في مؤتمر أدباء مصر بالأقصر
عام ٢٠٠٤
- حصلت علي تفرغ عام ١٩٩٧- ٢٠٠٣ -٢٠٠٤ -
٢٠٠٥ من وزارة الثقافة